سَبِيلُ الرَّشَادِ
فِي
صِحَّةِ الاعْتِقَادِ

تأليف
د. أحمد فال ولد محمد

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبيلُ الرَّشَادِ
فِي
صِحَّةِ الاعْتِقَادِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على نبيه الكريم

مقدمة الكتاب الثاني

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على شفيع المذنبين وإمام المرسلين سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحبه الذين عملوا فأخلصوا في العمل وجاهدوا فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا وبعد.

فهذه مقدمة لهذا القسم الثاني من هذا الكتاب وهو بعنوان :

(«سبيل الرشاد في صحة الاعتقاد»)

وقد حاولت حسب جهدي الضعيف أن أعطي للقاريء لمحة عن المهمة التي من أجلها أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وجردت السيوف للجهاد حتى أظهر الله دينه وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده وأصبحت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وأصبح الناس يسودهم الحب والوئام بعد أن كانوا لا يمسكهم لجام ولا يحكمهم نظام وهذا من فضله سبحانه وتعالى علينا حيث اختار لنا **افضل** الرسل وأعظم الكتب المنزلة على جميع البشر.

وكل نبي ذهبت معجزته معه إلا نبينا عليه الصلاة والسلام فإن معجزته باقية بين أيدينا وقد أخبرنا سبحانه عن هذه المعجزة بأنه :

﴿**كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه**﴾ كما بشرنا سبحانه بأن هذا الكتاب يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا.

فهذا الكتاب من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل بما فيه نجا . هو حبل الله المتين ونوره المبين وصراطه المستقيم . وهذا الكتاب لا تخلو منه سورة من التذكير بوحدانية الله عز وجل **ونبذ ما سواه** (فاعلم أنه لا إله إلا الله) (الله لا إله إلا هو) (هو الحي لا إله إلا هو) . والآيات في تثبيت كلمة التوحيد لا تحصر .

وقد مكث النبي ﷺ ثلاث **عشرة** سنة في مكة يدعو إلى هذه الكلمة إذ لا يطلب من أحد شيئاً قبلها فإن أقر بها قدم له ما تقتضيه من مسلتزمات .

وهذه المتطلبات هي التي نعالجها في هذا القسم من هذا الكتاب المبارك وقد جعلت الفصل الأول «إحلال المعرفة والنظر محل التقليد والعرف الخاطيء» وبعد هذا الفصل إنتقلت إلى «مفهوم العقيدة والإيمان» وجعلت الفصل الثاني «إنكار الوحدانية وعبادة الأصنام وإحلال التوحيد محل هذا» ثم دخلت في الكلام على باب البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

وأردفت هذا بالكلام عن النذر والذبح لغير الله ثم الاستعاذة ــ والاستغاثة ــ وهكذا تابعت الكلام على ما كان عليه أهل الجاهلية من طقوس لا أصل ولا **أساس لها مثل:** الطيرة ــ والعدوى ــ والتشاؤم ــ وجعلت عنوان هذا القسم الثاني من هذا الكتاب «**سبيل الرشاد في صحة الاعتقاد**» .

والله اسأل أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى، وأن يكـون مذكـراً للعالم ومعلماً للجاهل إنه على كل شيء قدير .

حرر في ٢٤/١٠/١٤١٢هـ

مؤلفه الدكتور : أحمد فال ولد محمد

كلية الشريعة وأصـول الديـن

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية فرع الجنوب (أبها)

الفصـــل الأول

في إحلال المعرفة والنظر محل التقليد

والعرف الخاطيء

إحلال المعرفة والنظر محل التقليد والعرف الخاطيء

التعريف [1] : حل العقدة : فتحها فانفتحت، وبابه : رد يقال : ياعاقدا أذكر حلا، وحل بالمكان حلولا من باب : رد . ومحلا أيضاً بفتح الحاء، والمحل : المكان الذي يحل به، وحللت القوم، وحللت بهم بمعنى والحل بالكسر الحلال وهو ضد الحرام ورجل حل من الاحرام أي : حلال، يقال هو : حل وحرم، ولم يذكر الجوهري في حرم أن الحرم بمعنى المحرم — ومحل ومحرم .

وقوم حلة أي: نزول وفيهم كثرة .

وقوله تعالى : ﴿حتى يبلغ الهدي محله﴾ [2] الموضع الذي ينحر فيه ومحل الدين : أجله — وحل العذاب : يحل بالكسر حلالا أي: وجب ، ويحل بالضم حلولا نزل وقريء بهما قوله تعالى : ﴿فيحل عليكم غضبي﴾ [3] . وأما قوله تعالى : ﴿أو تحل قريبا من دارهم﴾ بالضم، أي : ينزل وأحل خرج إلى الحل أو خرج من ميثاق كان عليه وأحل دخل في شهور الحل كأحرم وحل في شهور الحرم وما قبل الأخير، هو غرضنا هنا الذي أردنا له هذا التعريف لأن البحث عندي في الخروج من حال غير لائقة إلى حال طيب لائق حسن، وأتيت بهذا التعريف لأن الغرض إحلال المعرفة والنظر محل التقليد والعرف الخاطئين وذلك يقتضي الخروج من ميثاق كان عليه الإنسان إلى آخر قال صاحب الصحاح :

وأحل خرج من ميثاق كان عليه الإنسان ، أما عن العرف ، فتعريفه ينحصر في قولهم : عرفه يعرّفه عرفانا بالكسر .

---

(١) المختار الصحاح ص ١٦٨ — ٦٩١ .

(٢) سورة البقرة الآية ٦ .

(٣) سورة الرعد الآية ٣١ .

والعرف : الريح الطيبة كانت أو منتنة، والمعروف : ضد المنكر، أما النظر والنظران بفتحتين فهو : تأمل الشيء بالعين وقد نظر إلى الشيء، والنظر أيضاً: الانتظار: يقال : نظره ينظره بالضم نظرا، والناظر في المغلة السواد الأصفر الذي فيه انسان العين .

ويقال للعين الناظرة، والنظرة بالكسر : التأخير، وأنظره : أخره ، واستنظره : استمهله، والناظرة من المناظرة وفي آخر تعريف لهذه المفردات أي : مفردات الفصل .

الخطأ وهو: ضد الصواب، وبالتحليل اللغوي لمفردات عنوان الفصل يتبين أن هذا التركيب يفيد الانتقال والخروج من ثوب الشقاء إلى ثوب العز والكرامة ونبذ الجمود والعادة القبيحة والدخول في الإسلام، والتمسك بحبله المتين والميل عن الخطأ إلى الصواب .

والنظر والتفكر في الطرق السليمة السديدة، والتمسك بعقيدة الإسلام لأن الإسلام دعا إلى هذه الأمور[1] كلها وجاء بعقيدة سمحة صافية بيضاء نقية في ذات الله تعالى وفي حق رسله الكرام .

فالله رب العالمين واحد أحد فرد صمد ليس له ولد ولا والد، له جميع صفات الكمال، ومنزه عن جميع صفات النقص، لا ذاته تشبهها الذوات، ولا حكت صفاته الصفات﴿ليس كمثله شيء وهو السمع البصير﴾[2] وهو جل وعلا لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يشغله شأن عن شأن﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾[3] .

---

(١) البيان في علوم القرآن ص ١٤٢ .

(٢) سورة الشورى الآية ١١ ، المعجم المفهرس : ص ١٢٢ .

(٣) سورة طه الآية ٦ .

هو الخالق المنفرد بالخلق والايجاد ـــ وبيده ناصية العباد يضل من يشاء ويهدي من يشاء وهو على كل شيء قدير، الكل خلقه والجميع عبيده «إن كل من في السموات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا» .

قال تعالى : ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما﴾[1] وقال جلّ ذكره : ﴿الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا﴾[2]، وقال : ﴿ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ والآيات في هذا المجال لا تحصى عددا دالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالوحدانية المستحق للعبادة الفعال لما يريد .

قال تعالى : ﴿فعال لما يريد﴾ وهذه هي عقيدة الإسلام وهي التي يقرها القرآن، وقد ضلت عنها اليهود والنصارى فضل اليهود بعد موسى فعبدوا بعلا وزعموا أن لله ابنا هو : عزيز وشبهوا الله بالإنسان فزعموا أنه تعب من خلق السموات والأرض فاستراح يوم السبت تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

وقالوا عن أنفسهم أنهم ابناء الله واحباؤه وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة هي مدة عبادتهم للعجل اربعين يوما، كما افتروا على المسيح «عيسى» فزعموا أنه ابن زنى وأن أمه زانية وأنهم صلبوه ليطهروا بني اسرائيل من هذه الجريمة الشنيعة كل هذا وأمثاله كثيرة من أباطيل وأضاليل اليهود جاء القرآن هادما لها .[3]

وضل النصارى كذلك فزعموا أن لله ولدا وذهبوا إلى عقيدة معقدة من

---

(١) سورة طه الآية ٩٥ المعجم المفهرس ص ٦١٦ .

(٢) سورة الاسراء الآية ١١١ .

(٣) روائع البيان في علوم القرآن : ص ١٤٢ .

الإيمان بالتثليث الأب ـــ الأبن ـــ وروح القدس . وسموها بالأقانيم **وكلهم عيـــن الآخـــر** الثلاثة واحد والواحد ثلاثة وخلعوا على رجال كهنوتهم ما هو حق لله وحده من التشريع والتحليل والتحريم وزعموا أن الابن الإله صلب ليخلص الإنسان من خطيئته ويطهره من أوزاره .

والأعجب من هذا أن كثيراً منهم يعتقدون بأن عيسى ابن مرين هو الله نزل إلى الأرض في صورة بشر ، (١) إلى غير هذا من الأباطيل التي نسبوها **إلى الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً. فإذا نظرنا مدى البعد الشاسع بين الحق** الذي جاء به القرآن وبين الباطل الذي جاء به **هؤلاء** وهؤلاء وجدناه متباينا جداً على أن القرآن الكريم لم يكتف بسرد هذه الأباطيل والأخبار بها عن تحريف أهل الكتاب بل رد على أولئك ببراهينه الساطعة وأدلته القاطعة .

واستمع إليه وهو يقول عن أهل الكتاب «النصارى» : ﴿ **ياأهل الكتاب** لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيمى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورُسُلِه ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا﴾ (٢) .

ويقول القرآن الكريم وهو يتكلم عن أهل الكتاب اليهود : ﴿فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما، وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما

---

(١) نفس المصدر السابق : ١٤٢ .

(٢) سورة النساء آيه ١٧١ ـــ ١٧٢

قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيما﴾ . سورة النساء ١٥٥ إلى ١٥٨

ولقد صرح القرآن بالتحريف الذي وقع عند أهل الكتاب في التوراة والأنجيل وبين أن مهمة الرسول إنما هي في تصحيح ما ارتكبوه من الكذب والبهتان وفي كشف ما أخفوه من آيات الله في التوراة والأنجيل : (١)﴿ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ فهل بعد هذا البرهان من حجة .

أقول وبالله التوفيق : لاشك أن القرآن الكريم واف بحاجة البشرية وهذا يدركه كل متأمل في شريعة الإسلام فقد جاء بهداية تامة كاملة شاملة واسعة تفي بحاجات البشر في كل زمان ومكان .

يقول محمد الصابوني في كتابه علوم القرآن : وَيتجلى ذلك إذا استعرضت المقاصد النبيلة التي رمى اليها القرآن في هدايته وإرشاده وهي بإيجاز : إصلاح الأفراد ، اصلاح المجتمعات ، إصلاح العقائد ، إصلاح الاخلاق ، إصلاح الحكم والسياسة، إصلاح الشئون الحربية، إصلاح الثقافة العلمية، تحرير العقل من الخرافات، وبهذه المقاصد النبيلة ندرك أن الإيمان والإسلام حلا محل الكفر والعصيان وأن الدخول فيه واجب ونبذ ما سواه لازم، وبهذه المناسبة نذكر الاسلام ماهو وما حقيقته وعلاقته بالإيمان وهل هما شيء واحد أم شيئان وبيان حسن اسلام المرء، وأن الإسلام يهدم ما قبله .

---

(١) البيان في علوم القرآن : ص ١٤٣ .

أقــول وبـــالله التوفيـــق : الإسلام هو : الإستسلام لله عز وجـــل . أي : الخضوع والإنقيـاد التامـان له سبحانـه وأن يبرأ الإنسان من حولـه وقوتـه ويدخـل في حول الله وقوتـه، والإيمان هو : أن يؤمـن الإنسان بالله وملائكتـــه وكتبه ورسله ، وقد بين حديث جبريل الطويـل الثـابت في الصحيـحين حقيقـة الإسلام والإيمان والإحسان كل على حدة .

أمـا علاقـة الإيمان بالإسلام فهـي علاقـة وطيـدة وثيقـة حتـى قال ابـــن القيم : إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقـا اجتمعـا) ومعنـى هذا أنـه إذا ذكـر أحدهما دخل معـه الآخر وإذا ذكـرا معـا فكـل واحـد قائم بنـفسه، وهـذا يعطينـا مدى ارتباط كل منهما بالآخر .

قال الله عز وجـل : ﴿قـالت الاعـراب آمنـا قل لم تؤمنـوا ولكـن قولـوا أسلمنا﴾ (١) . وقد أخـرج مسلـم في صحيحـه عن ابـن مسعـود رضي الله عنـه قال : انـاس لرسول الله ﷺ : يارسول الله أنؤاخـذ بما عملنـا في الجاهليـــة ، قال: « أمـا من أحسن منكـم في الإسلام فلا يؤاخـذ ومـن اساء أخـذ بعمله في الجاهلية ـــ والإسلام » (٢) .

قال النـووي : وأمـا معنـى الحديث الصحيـح فيـــه ما قاله جماعـــة من المحـقـقين أن المراد بالإحسان هنـا الدخـول في الإسلام بالظاهـر والباطـن جميعـاً وأن يكـون مسلمـا حقيقـة فهـذا يغفـر له ما سلـف في الكفـــر بنص القـــرآن العزيـز (٣) والحديث الصحيـح الإسلام يهدم ماقبلـه، قال رسول الله ﷺ لعمـر حين مد يدّه اليه ليبايعه فقال عمر: اشترط ، قال : ومـاذا تشتـرط ، قال : أن يغفـر لي ما سلـف ، قال له رسول الله ﷺ :«أمـا علـمت ياعمـر أن الإسلام

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٤ .

(٢) صحيح مسلم : شرح النووي : ١٣٥/٢/ط الجديدة .

(٣) المرجع السابق نفسه : ١٣٥/٢ .

يهدم ما كان قبله» . وهذا بإجماع المسلمين، والمراد بالإساءة عدم الدخول في الإسلام بقلبه فهذا منافق باق على كفره بإجماع المسلمين فيؤاخذ بما عمل في الجاهلية قبل ظهور صورة الإسلام وبما عمل بعد إظهارها لأنه مستمر على كفره وقد جاء في صحيح البخاري في باب حسن اسلام المرء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «إذا اسلم العبد فحسن إسلامه يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفه» [1] . وفي رواية ذكرها الشارح (أزلفها) .

قال الحافظ في الفتح : قوله : فحسن اسلامه، أي : صار اسلامه حسنا باعتقاده واخلاصه ودخوله فيه بالباطن والظاهر وان يستحضر عند عمله قرب ربه منه واطلاعه عليه كما دل عليه تفسير الاحسان في حديث سؤال جبريل عليه السلام ومما [2] لا نزاع فيه أنه لا يجوز لأحد أن يفسر الاحسان بمعنى باطل أو باسلام صوري ثم يرتب عليه أنه يهدم ما كان قبله فإن فعل ذلك يكون مرتكبا أنواعا من الجرائم منها ترتيب أحكام الدين الإسلامي الحقيقي على الصوري الباطل عند الله وذلك مثل الحكم المذكور في حديث عمر هذا[3] .

---

(١) فتح الباري : ٧٣/١ .

(٢) صحيح مسلم: ١٣٧/٢ .

(٣) الايضاح المبين في هدم الاسلام للكفر المشين : ص ٤ ـ ٥ .

ومنها أنه يلزمه أن يكون الله قد رضي هذا المعنى الباطل وأخبر في كتابه برضاه عنه وهذا من أكذب الكذب على الله، ومنها أن يكون فاعل ذلك مفتريا على الله ملحدا في آياته مرتبا تلك الاحكام على ما يترتب ق الإسلام الصوري الباطل مثل هذه الجرائم ويكون ذلك المعنى الباطل لا يخرج عن الإعتقاد الظاهري الذي حكم الثوري وغيره على المقتصر عليه أنه منافق باق على كفره مؤاخذ بما عمل في الجاهلية والإسلام فأي قيمة لهذا الإسلام الصوري الذي حقيقته النفاق[1].

(١) المرجع السابق.

قال الإمام البخاري : باب — إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة — وكان على الإستسلام والخوف من القتل [٢]لقوله تعالى : ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ . فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره : ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ .

قال الكرماني، قوله : على الإستسلام ، أي : الإنقياد الظاهر فقط، وأسلمنا : أي : دخلنا في السلم وليس استسلاما على الحقيقة ، وإلا لما صح نفي الإيمان عنهم لأن الإيمان شرط صحة الإسلام عندهم [٣] .

قال النووي : وأصل الإيمان : التصديق ، وأصل الإسلام الاستسلام فقد يكون المرء مسلما في الظاهر غير منقاد في الباطن وقد يكون صادقا في الباطن غير منقاد في الظاهر .

ونقل الكرماني عن الجوهري في الصحاح أنه قال : أسلم، أي : دخل في الإسلام وهو الإستسلام، ومثله في القاموس ، وقد استفدنا من هذا أن الإسلام قسمين، كما قال البخاري وشارحه : أحدهما الإسلام الصوري وثانيهما إسلام حقيقي [٤] .

ولذلك قال الراغب في المفردات، والإسلام في الشرع على ضربين : أحدهما دون الإيمان وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل وإياه قصد بقوله تعالى : ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ .

---

(٢) البخاري بشرح الكرماني ١/١٢٨ .

(٣) النووي : ١/٢٤٥ .

(٤) مفردات الراغب : ص ٢٤١ .

والثاني فوق الإيمان وهو : مع الاتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر وقد أفصح بأن الإسلام ضربان .

قال الحافظ في الفتح : وقال المازني : أن من شرط المتقرب أن يكون عارفا لمن يتقرب إله، يقول محمود أحمد مهدي : (الإسلام عند ذوي الأفكار السطحية والمفاهيم العاثرة هو الدين الذي جاء به خاتم النبييت محمد ﷺ ولا تتعدى كلمة الإسلام عندهم إلى ما سواه وقبله من الأديان .

قال ابن تيمية في موافقة صريح القول : لا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به محمد ﷺ إيمانا عاما مجملا إلى أن يقول : وأما ما وجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرتهم ويجب على من سمع النصوص وفهمها [1] من علم التفصيل مالا يجب على من لم يسمعها، وأما التفصيل فأوجب الله فيه العلم ووجب فيه ما أوجب اليه من ذلك كقوله تعالى : ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله عفور رحيم﴾ وقوله : ﴿فاعلم أن لا إله إلا الله﴾ .

وكذلك يجب الإيمان بما أوجب الله الإيمان به ففي هذا رد على من زعم أن الإسلام والإيمان قول باللسان وعمل بالاركان من غير فهم . بما يتكلم به من ألفاظ الإيمان .

وكلام الشيخ أفاد أنه يفترض على كل احد أن يصدق بقلبه بجميع ما جاء به الرسول ﷺ ويتضمن ذلك معرفة معاني النصوص من العقائد الواجبة والفرائض اللازمة كفرض العين .

أقول وبالله التوفيق : معرفة نصوص الشرع لابد منها لكل مسلم فالحكم على الشيء فرع عن تصوره . وبناء على هذه القاعدة المنطقية يلزم علي المسلم أن يكون لديه سلاح، وذلك السلاح هو معرفة اسلوب القرآن .

---

(١) أضواء على الاسلام : ص ٩ ـــ محمود أحمد مهدي .

وينقسم ذلك إلى أقسام :

أن من يستقريء النصوص القرآنية الدالة على الأحكام الشرعية [1] يجد أن بعضها بين في ذاته لا يحتاج إلى إيضاح وبعضها يحتاج إلى بيان وتفسير بأن يكون اللفظ مجملا يحتاج إلى تفسير أو خفيا يحتاج إظهار، أو مشكلا يحتاج إلى بيان فمن الأول قوله : ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة﴾ ومنه أيضاً آيات اللعان : ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ الآية [2]، فإن هذه الآيات ظاهرة المعنى واضحة في تعيين المراد وهو : كيفية تعيين اللعان وسببه، وقد جاءت السنة مبينة الآثار التي تترتب على اللعان .

ومن النوع الثاني المحتاج إلى بيان الأمر بالصلاة والزكاة فإن القرآن لم يوضح عدد الركعات ولا أوقاتها [3] وهيآتها وكذلك الزكاة لم يوضح مقدار الزكاة إلى غير ذلك من المطلق والمقيد والمجمل والمفصل . والغرض عندي بيان أن المسلم ملزم بمعرفة أمر دينه من هذه الأمور كلها حتى يكون مسلما حقيقياً له حرمة المسلم الكاملة وإحلال العقيدة السليمة محل الشرك وإحلال العلم محل الجهل .

والتمسك بالسنة بدل العادة كل هذا يجعل الإنسان ملزما بمعرفة ما نهى الله عنه وما أمر به وأن ينبذ ما كان عليه من عادة سيئة وجهالة لا توافق الشرع كي يغفر له ما سلف أيام جاهليته إذا تاب وأناب .

قال تعالى : ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ .

قال ابن جرير : [4] أن ينتهوا عما هم عليه مقيمون من كفر بالله

---

(١) الايضاح المبين في هدم الاسلام للكفر الشمين ص ٦ .

(٢) بدران أبو العينين ص ١، ٢، ٣ .

(٣) المصدر السابق : ص ٣ — ٤ .

(٤) ابن جرير الطبري ج٩ ص ٢٤٧ .

ورسوله فينيبوا إلى الإيمان يغفر الله لهم ما قد مضى من ذنوبهم قبل إيمانهم وانابتهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله بإيمانهم وتوبتهم .

فذكر انتهاءهم من الكفر وهو عمل قلبي وأفاد قوله : «فتبينوا» أن الإنتهاء المذكور يستلزم إنابتهم ورجوعهم ظاهرا وباطنا إلى الإيمان بشريعة الإسلام وهو أيضاً عمل قلبي والإيمان به يلزم العمل بها [1] إذ لو لم يؤمنوا ولم يعملوا فهم كفار فلم يصدق عليهم أنهم انتهوا عن كفرعم .

قال ابن كثير [2] : أن ينتهوا عما هم فيه من الكفر والشقاق والعناد ويدخلوا في السلم والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف ثم بين أن حديث ابن مسعود : «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية» . وحديث «الإسلام يهدم ما قبله» يستفاد منهما أن المراد من الانتهاء إنتهاء القلب عما اكتسبه من العقائد الشركية المستلزمة للعناد والمشاقة مع الدخول في الإسلام في الظاهر والباطن وبعد أن يفعلوا ذلك يغفر لهم ما سلف [3] .

فظهر أن المراد من الحديثين المذكورين في كلامه ما أريد به في الآية مع حسن الإسلام قلبا بالدخول في حقيقة الإسلام والعمل بالطاعة والإنابة لا مجرد قول اللسان : آمنت وانتهيت عن الكفر وتركت كتبه بل لابد أن ينتهي قلبه عن كل كفر والحاد وتعلق بعبادة إله باطل وعقيدة باطلة وعن كل حمل للآية على أي معنى الحادي مع الحكم بكون ذلك الإله الباطل الذي كان قد اعتقده حقاً طاغوتا يأمر الله بالكفر به واجتناب عبادته والتبري منه ومن أهله والله الموفق .

أقول وبالله التوفيق : العادة السيئة في النفس من أسوأ الأمراض وأصعبها

---

(١) الايضاح المبين في هدم الاسلام للكفر المشين ص ٩ — ١٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٠٨/٢ .

(٣) المصدر السابق

علاجا لقوة تحكمها في الإنسان ولابد للمسلم من كفاحها والتغلب عليها وإلا ظل الإنسان أسيرا لا يميز بين الحق والباطل .

والقلب يؤاخذ الإنسان بما كسب لقوله تعالى : ﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ (١) وهذا لا نزاع فيه بين العلماء لوروده في محكم الكتاب .

قال الله عز وجل : ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ (٢) وقوله : ﴿ليجزي الله كل نفس بما كسبت﴾ وقال تعالى ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلك ما لهم من الله من عاصم﴾ (٣) وهذه الآيات وغيرها مذكور فيها من التخويف من العادة المخالفة والمكابرة في الدين بغير ما أنزل الله وما شرع ما يردع صاحب العقل ويجعله واقفا عند حدود الله .

وهنا وبعد أن بينت الإسلام ما هو وعرفته في أول هذا البحث (٤) نقول أيضاً أنه دين الله الخالص الذي أوحاه إلى نبيه ﷺ وهو إيمان وعمل يمثل العقيدة والأصول التي تقوم عليها شرائع الاسلام وعنها تنبثق فروعه والعمل بالشريعة والفروع التي تعتبر امتدادا للإيمان والعقيدة والإيمان والعمل، والعقيدة والشريعة كلاهما مرتبط بالآخر إرتباط الثمار بالاشجار أو المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات ومن أجل هذا الترابط الوثيق يأتي العمل مقترنا بالإيمان في أكثر الآيات القرآنية قال تعالى : ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ (٥) .

---

(١) سورة الزمر الآية ٥١ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٣٦٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٥، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ١٨ .

(٣) سورة يونس آية ٢٧ .

(٤) العقائد الإسلامية ص ٧ .

(٥) سورة البقرة الآية ٢٥ .

وقال جل ذكره : ﴿من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ [1] .

وقال أيضاً : ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا﴾ .

---

(1) سورة النحل الآية ٩٧

مفهوم العقيدة والإيمــان

مفهوم الإيمان أو العقيدة ينتظم بستة أمور[1]: المعرفة بالله وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا ــ والمعرفة بدلائل وجوده ومظاهر عظمته في الكون والطبيعة .

ثانياً : المعرفة بعالم ما وراء الطبيعة أو العالم غير المنظور وما فيه من قوى الخير التي تتمثل في الملائكة وقوى الشر التي تتمثل في إبليس وجنوده من الشياطين . والمعرفة بما في هذا العالم أيضاً من جن وأرواح.

ثالثاً : المعرفة بكتب الله التي أنزلها لتحديد معالم الحق والباطل والخير والشر والحلال والحرام والحسن والقبيح .

رابعاً : المعرفة بأنبياء الله ورسله الذين إختارهم الله ليكونوا اعلام الهدى وقادة الخلق إلى الحق .

خامساً : المعرفة باليوم الآخر وما فيه من بعث وجزاء وثواب وعقاب وجنة ونار .

سادساً : المعرفة بالقدر خيره وشره وهو الذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير .

ووحدة العقيدة هي : مفهوم الإيمان، وهي التي أنزل الله بها كتبه وأرسل بها رسله وجعلها وصيته في الأولين والآخرين فهي عقيدة واحدة لا تتبدل بتبدل الزمان أو المكان ولا تتغير بتغير الأفراد أو الأقوام .

---

(١) العقائد الاسلامية ص ٨ .

قال تعالى : ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ [1] . وما شرعه الله لنا من الدين ووصانا به كما وصى به رسله السابقين هو العقائد وقواعد الإيمان لا فروع الدين ولا شرائعه العملية فإن لكل أمة من التشريعات العملية ما يتناسب مع ظروفها وأحوالها ومستواها الفكري والروحي .

قال تعالى : ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾ [2] وإنما جعل الله هذه العقيدة عامة للبشر وخالدة لما لها من الأثر البين والنفع الظاهر في حياة الأفراد والجماعات، فالمعرفة بالله من شأنها أن تفجر المشاعر النبيلة وتوقظ حواس الخير وتربي ملكة المراقبة وتبعث على طلب معالي الأمور — وأشرفها .

والمعرفة بالكتب الإلهية : إنما هي عرفان بالمنهج الرشيد الذي رسمه الله للإنسان كي يصل بالسير عليه إلى كماله المادي والأدبي والمعرفة بالرسل إنما يقصد بها ترسيم خطاهم والتخلق بأخلاقهم والتآسي بهم باعتبار أنهم يمثلون القيم الصالحة والحياة النظيفة التي أرادها الله للناس والمعرفة باليوم الآخر هي أقوى باعث على فعل الخير وترك الشر .

والمعرفة بالقدر تزود المرء بقوى وطاقات يتحدى بها كل العقبات والصعوبات وتصغر دونها الأحداث الجسام وهكذا يبدو بجلاء أن العقيدة إنما يقصد بها تهذيب السلوك وتزكية النفوس وتوجهها نحو المثل الأعلى — فضلا عن أنها حقائق ثابتة وهي تعد من أعلى المعارف الإنسانية : إن لم تكن أعلاها على الإطلاق .

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٨ .

وتهذيب سلوك الفرد عن طريق غرس العقيدة الدينية هو [1]اسلوب من أعظم أساليب التربية حيث أن للدين سلطانا على القلوب والنفوس وتأثيرا على المشاعر والأحاسيس ولا يكاد يوازنه في سلطانه وتأثيره شيء آخر من الوسائل التي ابتكرها العلماء والحكماء ورجال التربية[2] .

فغرس العقيدة في النفوس هو أمثل طريقة لإيجاد عناصر صالحة تستطيع أن تقوم بدورها كاملا في الحياة وتسهم بنصيب كبير في تزويدها بما هو أنفع وأرشد إذ أن هذا اللون من التربية يضفي على الحياة ثوبا من الجمال والكمال ، ويظللها بظلال المحبة والسلام ومتى سادت المحبة ارتفعت الخصومة وانقطع النزاع وحل الوفاق محل الشقاق وتقارب الناس وتآلفوا وسعى الفرد إلى خير الجماعة وحرصت الجماعة على إصلاح الفرد واسعاده ومن ثم تظهر الحكمة واضحة من جعل الإيمان عاماً خالداً ، فإن الله لم يُخْلِ جيلا من الأجيال ولا أمة من الأمم من رسول يدعوا إلى هذا الإيمان وتعميق جذور العقيدة وكثيرا ما كانت تأتي هذه الدعوة بعد فساد الضمير الإنساني وبعد أن تتحطم القيم العليا ويظهر أن الإنسان أشد ما يكون حاجة إلى معجزة تعيده إلى فطرته السليمة ليصلح لعمارة الأرض وليقوي على حمل أمانة الحياة .

ان هذه العقيدة هي الروح لكل فرد بها بحيا الحياة الطيبة وبفقدها يموت الموت الروحي، وهي النور الذي إذا عمى عنه الإنسان ضل في مآرب الحياة وتاه في أودية الضلال .

قال تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في

---

(١) العقائد الاسلامية ص ١٠ ــ ١١ ط الأولى .

(٢) المرجع السابق ص ١٠ ــ ١١ .

الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [1] . ان العقيدة مصدر العواطف النبيلة والمشاعر الطيبة ومنبت الأحاسيس الرهيفة فما من فضيلة إلا تصدر عنها ولا صالحة إلا ترد اليها .

والقرآن الكريم حينا يتحدث عن الصالحات إنما يذكر العقيدة في طليعة أعمال الخير ــ كأصل تتفرع عنه وكأساس تقوم عليه لقوله تعالى : ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾[2] .

أقول وبالله التوفيق : هذه العقيدة عقيدة الرسل التي أرسلهم الله بها ، [3] فيها إصلاح البشر عاجلا وآجلا وكماله الخلق فهي تدعو للصبر والإخلاص والرسل عليم الصلاة والسلام لهم منهج في غرس هذه العقيدة بين فكانت الرسل تعرض على الناس هذه العقيدة عرضاً كله السهولة والبساطة والمنطق فتلفت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض وتوقظ عقولهم إلى التفكير في آيات الله وتنبه فطرهم إلى ما غرس فيها من شعور بالتدين وإحساس بعالم وراء هذا العالم المادي وعلى هذه السنن مضى رسول الله ﷺ يغرس هذه العقيدة في نفوس امته لافتاً أنظارهم وموجهاً أفكارهم وموقظاً عقولهم ومتعهداً هذا الغرس بالتربية والتنمية حتى بلغ الغاية من النجاح واستطاع أن ينقل الأمة من الوثنية والشرك إلى عقيدة التوحيد ويملأ قلوبنا بالإيمان واليقين كما استطاع أن يجعل من أصحابه قادة في الإصلاح وأئمة في الخير وأن يخلق جيلا يعتز بالإيمان ويعتصم بالحق فكان هذا الجيل كالشمس للدنيا والعافية للناس وقد شهد الله لهذا الجيل بالتفوق والامتياز

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٧ .

(٣) العقائد الاسلامية ص ١٢ ــ ١٣ .

فقال : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [1] .

ولقد بلغ الإيمان في نفوس هذا الرعيل مبلغاً عظيماً من الأيثار على النفس والتسابق للشهادة ولين الجانب بعضهم لبعض، والتواضع مع الغلظة والشدة على الكفار ، وقد وصفهم القرآن الكريم بهذه الصفات كلها قال تعالى : ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[2] وقال تعالى : ﴿يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ إلى غير ذلك من الآيات المتناثرة في القرآن الكريم التي تبين صفاتهم المجيدة من الرغبة في الخير والحب في الله والبغض في الله[3] .

وقد وردت الأحاديث الصحاح الدالة على فضل الحب في الله والبغض فيه من ذلك حديث أنس رضي الله عنه الثابت في الصحيحين وغيرهما عن النبي ﷺ قال : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» متفق عليه .

وقد لاحظ الرعيل الأول هذه القاعدة فطبقها فكان الحب والإيثار شعاراً لهم يميزون به وعنواناً لهم يعرفون به ، ويرجون الدخول في الظل الظليل الذي نص عليه حديث أبي هريرة الثابت في الصحيحين للمتحابين ، ونص الحديث : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله عز

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٠ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩ .

(٣) رياض الصالحين ص ١٦٧ — ١٦٨ .

وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال : اني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما انفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه« . متفق عليه .

أقول وبالله التوفيق : هذه الصفات المتقدمة وردت بها النصوص الكثيرة كما بينت، وتدل على فضل الحب في الله وقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : «ان الله تعالى يقول يوم القيامة اين المتحابون في جلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» رواه مسلم .

وأيضاً قد جاء في مناقب الأنصار من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال في الأنصار : «لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق» متفق عليه .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قال الله عز وجل : المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيين والشهداء» رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أدريس الخولاني قال : دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الثنايا وإذا اناس معه فإذا اختلفوا في شيء اسندوه إليه وصدروا عن رأيه، فسألت عنه فقيل هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه فلما كان من الغد هجرت فوجدته قد سبقني بالتهجير ووجدته يصلي فانتظرته حتى قضي صلاته ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه ثم قلت : والله اني لأحبك ، فقال : الله، فقلت : الله . فقال : الله، فقلت : الله، فأخذ بحبوة رداء فجذبني إليه فقال : ابشر فانني سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال تعالى : «وجبت محبتي للمتحابين فيّ والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ، والمتبادلين فيّ» رواه مالك في الموطأ باسناده .

أقول وبالله التوفيق : إذا كنت اعطيت لمحة عن الرعيل الأول من الايثار الذي جلبه اليه الإسلام وتعاليمه كما بينت الأحاديث السابقة والآيات القرآنية التي نصت على أنهم رحماء بينهم أشداء على الكفار، وما فيهم من تسابق في جلب الخيرات وكسبها حتى كأنهم ينظرون إلى الساعة وقد قامت وصحائف الحسنات والسيئات قد نشرت أمامهم كما صورته الأحاديث قريباً . فإنه يجدر بنا أن ننظر إلى الإسلام أيضاً من زاوية أخرى هي : زاوية السماحة والوفاء لنعرف كم جلب الإسلام للإنسان من كمال يالـهُ من كمال ومن نعمة يالها من نعمة .

يقول الدكتور العرجون : أن العالم يتطلع[1] من نوافذ التاريخ إلى حضارة تنقذه من ويلات الخوف والرعب ودنس الضمير وتعيده إلى الطمأنينة والسكينة . وتمحو من قلوب الشعوب والأمم دفائن الأحقاد والأضغان وترد اليهم الألفة والمحبة والاخاء طهارة الضمير وصفاء الوجدان، فأين يجد العالم تلك الحضارة التي تحقق له هذه الأحلام بعد هذه التجارب القاسية المريرة أنه لم يجدها ولن يجدها في ديمقراطية أوربية فاشلة، ولم يجدها ولن يجدها في الشيوعية الملحدة الطاغية الهادمة لأمجاد الإنسانية ومقوماتها الطبيعية ولم يجدها ولن يجدها في علم أمريكا وصواريخها المدمرة ورءوس أموالها الفاجرة، ولكنه إذا أراداها فإنه يجدها في ظل الإيمان بالله تعالى إيماناً يطهر البشرية من رجس الأنانية والأثرة وتقديس المادة العمياء، ايمانا لا يخدع ولا يخدع، إيمانا صريحا واضحا لا يُسمِّي الأشياء مدنية ولا يسمي الفسوق عن جادة الأدب حضارة ، إيمانا يرفع النفس الإنسانية إلى آفاق علوية تجعل من الضمير الإنساني حارسا يقظاً على سلوك الأفراد والجماعات يراقبهم في داخل مخدعهم وخارج بيوتهم ويكون معهم أين ما كانوا .

---

(١) عظمة الإسلام : ٢/٦٤ ــ ٦٥ وسماحة الاسلام : ١/٤٨٠ .

أقول وبالله التوفيق : قد ذم الله التفرقة والتنازع والتدابر ونهى المسلمين عن ذلك فقال تعالى : ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ . وأمر بالصبر والتكاتف والاعتصام بحبله المتين فقال جلّ ذكره : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وامتن على المسلمين بالآخاء بينهم فقال : ﴿فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ ، أي : بالألفة .

أقول وبالله التوفيق : هكذا نجد روح الإسلام تتمثل في الحب والإخاء بعدما رأينا مثلها العليا فيما سبق ، وإذا كان الإسلام قد حقق السماحة والحب والإيثار والأخاء فإنه كذلك حقق المساواة فهو أيضاً دين المساواة .

يقول محمد عطية : ان الإسلام يعامل الجميع معاملة واحدة وينظر إلى الجيع نظرة واحدة ويعطي كل ذي حق حقه ففي الصلاة نجد المسلمين في صفوف متساوية لا فرق بين غني وفقير وأبيض وأسود ورفيع ووضيع في صلاة الجماعة فهم متساون أمام الله يعبدونه ويستغفرونه هم جميعا يتمتعون بالآخاء والمساواة له يركعون ويسجدون ، ويسبحون ويلبون وفي الصيام كذلك نجدهم متساويين وفي العقوبة سواسية أيضاً .

قال تعالى : ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾ [1] .

هكذا نجد العدل متمثلا في الإسلام في كل صغيرة وكبيرة حتى الجروح قصاص فلا يترك حقا لاحد يضيع ولا يأخذ من أحد أكثر مما جنى .

والصحابة رضوان الله عليهم كانوا يطبقون هذه التعاليم نصا وروحا، ولا يتركون بابا فقد جاء في كتاب عظمة الإسلام[2] أن عمر بن الخطاب

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤٥ .

(٢) عظمة الإسلام : ٢/٦٥ ــ ٦٦ ــ ٦٧ .

رضي الله عنه شكا إليه رجل من أقباط مصر سوء معاملة ابن عمرو بن العاص له وضربه إياه وهو حاكم مصر آن ذاك، وقوله له : أنا ابن الأكريمن» نجد أن عمر العادل يدعو ابن الأكرمين وأباه ويأمر القبطي أن يضرب ابن الأكرمين كما ضربه فيمتنع المصري لأن ابن العاص لم يضربه، ثم ينظر عمر بن الخطاب إلى عمرو ابن العاص ويقول قولته المشهورة : «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارا» .

يقول محمد عطية : ولا نبالغ إذا قلنا أن الذميين من غير المسلمين كانوا يتمتعون بالمساواة في البلاد الإسلامية لتنفيذ قول الرسول ﷺ (١) : «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وما ورد أيضاً عنه : «من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة» (٢) فالإسلام دين الإنسانية والديمقراطية والأخلاق النبيلة ، ولو أنتشر الإسلام في العالم لساد السلم والسلام وما كانت هناك حروب ولا استعمار .

أقول وبالله التوفيق : من محاسن الإسلام التي لا تحصى أنه لا يدعوا إلى عصبية ولا إلى عنصرية وقد وحد، فهو دين مساواة ومحبة وإخاء، ومشاورة، دين مدنية وحضارة، دين إنسانية وكرامة ويدعو إلى الوحدة الشاملة بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ويتجاهل الفوارق بينهم . قال تعالى : ﴿ان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ .

وقال ﷺ : «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل عصبية، وليس منا من مات على عصبية » . وليس الغرض من المساواة أن نتجاهل كفاءة العالم، وشجاعة القائد، ومهارة الطبيب، وعدالة القاضي، وإخلاص

---

(١) هذا جزء من حديث ورد في رسالة النبي ﷺ إلى ملوك حمير ذكرها ابن هشام : ١١١٩/٤ .

(٢) أخرجه الخطيب في ترجمة داود بن علي بن خلف عن اسحاق بن إبراهيم عن عيسى بن يونس عن الأعمش عن ثقيف عن ابن مسعود وهو ضعيف وحكم ابن الجوزي بوضعه . فيض القدير : ١٩/٦ .

العامل، وإنتاج الصانع فلكل منهم طاقة ومقدرة وموهبة والطاقات والكفاءات والمواهب تختلف باختلاف الأفراد وأعمالهم وقدراتهم .

وقال عز شأنه : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾ فالأرزاق بيد الله وقد نجد أخوين (١) أحدهما رزقه ميسر وكثير والآخر رزقه ضيق وقليل، فيكون الأول غنياً والآخر فقيراً، فالناس مختلفون في إستعداداتهم الفطرية التي وهبهم الله إياها فهذا فائق الذكاء وذاك متوسط وهذا نشط محب للعمل، وذاك كسلان يفضل الراحة ، وقد نظم الله تعالى العالم والكون والحياة . قال تعالى : ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ (٢) .

ولهذا يقول محمد الغزالي : فنحن نرى في هذا الإسلام الجامع الكفاية المشبعة للأزمات الروحية والفكرية التي يعانيها الناس ويتطلعون منها إلى مخرج ونرى فيه المنهج الذي ينفي متاعب الحيرة والشرود ويبعد اسباب الغضب والطرد ويصل الإنسان بالله صلة ناعمة كريمة .

أقول وبالله التوفيق : إذا كنت بينت بعض محاسن الإسلام في العدالة والسماحة والاخاء والأثرة فأنه لا يفوتني أن أبين كذلك سماحة الإسلام بالعهود وحرصه على الوعد والعهد والمواثيق (٣) : والناظر في تصرفات قادة الفتوحات الإسلامية من أصحاب رسول الله ﷺ وامرائه وولاته وتلاميذه من التابعين وتابعيهم يرى أنهم كانوا أحرص(٤) على الرفق والسماحة في تنفيذ

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب عن جبير بن مطعم، وهو حسن وبعضهم ضعفه، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣٨٦/٥ .

(٢) سورة هود : الآية ١١٨ .

(٣) مع الله . دراسات في الدعوة والدعاة ص ٦ ، محمد الغزالي .

(٤) سماحة الاسلام : ٤٢٢/١، محمد صادق العرجون .

العهـود والمصالحات من كل واحـد .. مما جعـل المعاهديـن والمصالحين يتعاونـون مع المسلمين [1] في صدق وإخـلاص نتيجـة لما رأوه من العدالـة الرحيمة في معاملة المسلمين لهم .

يقـول الإمـام أبـو يوسف في كتـاب الخراج : [2] إنما كان الصلـح يجري بين المسلـمين وأهـل الذمـة في أداء الجزيـة وفتـحت المدن على الا تهدم بيعهـم ولا كنائسهـم داخـل المدينـة ولا خارجهـا وعلى أن يحقنـوا لهم دماءهـم وعلى أن يقاتلوا من ناؤهم من عدوهـم ويذبـوا عنهم ثم يروي أبـو يوسف عن الإمـام مكحـول الشامـي [3] أن أبـا عبيـدة بن الجراح رضي الله عنـه صالحهـم بالشام واشترط لهم حين دخلها أن تترك كنائسهم وبيعهم وطلبـوا منـه أن يجعـل لهم يومـا في السنـة يخرجـون فيـه صلبـانهم بلا رايـات وهـو : يوم عيدهـم الأكبر فأجابهم إلى ما طلبوا ووفى لهم المسلمون بشرطهـم فلمـا رأى أهـل الذمـة وفـاء المسلـمين وحسن سيرتهم فيهم صاروا أشداء على عدو المسلـمين وعونـا للمسلـمين على أعدائهـم فبـعث على كل مدينـة ممن جري الصلـح بينهم وبين المسلـمين رجـالا يتـجسسون الأخبـار عن الـروم وعـن ملكهـم فأتـوا الـرسل يخبرون بأن الـروم قد جمعـوا جموعـا لم يرى مثلها، وتتابـعت الأخبـار على أبي عبيدة بهذا النبأ فاشتـد عليـه ذلك وعلى المسلـمين ، فكـتب أبـو عبيـدة بهذا إلى كل وال ممن خلفـه في المدن التـي صالح أهلهـا يأمرهـم أن يردوا عليهم ما جبي منهم من الجزيـة والخراج، وكتـبت لهم أن يقولـوا لهم : إنما رددنـا عليكـم أموالكـم لأنـه بلغنـا ما جمع لنـا من الجمـوع وأنكـم اشتـرطتم علينـا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك وقـد رددنـا عليكـم ما أخذنـا منكـم ونحن لكـم

(١) الموسوعة في سماحة الاسلام : ١/٤٢٥ ـــ ٤٢٦ .

(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٦٤ ـــ ١٦٥ / ط السلفية .

(٣) مكحول الشامي : أبو عبد الله ثقة فقيه كثير الارسال، مشهور من الخامسة مات سنة بضع عشرة ومائة /م/عم التقريب : ٢/٢٧٣ .

على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم[٣] ، فلما قال لهم المسلمون ذلك وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم، قال أهل الذمة للمسلمين : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً، ويأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً، فلما كتب أبو عبيدة لعمر يخبره بذلك أقره وقال له : امنع المسلمين من ظلمهم والاضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحقها ووف لهم شرطهم الذي شرطت لهم في جميع ما اعطيتهم .

أقول وبالله التوفيق : هكذا يكون الوفاء بالعهد، وهكذا تكون السيرة النبيلة التي يرجى لأهلها النجاح والفلاح وتصلح لقيادة الجيوش . والشعوب فياليتنا صرنا إلى هذا النصح وسرنا على هذا النهج الذي ترك لنا الآباء من صدق القول والوفاء بالعهد .

وهكذا نراه مرة أخرى حتى مع غير المسلمين، على جانب عظيم من السماحة والوفاء .

وبهذا العرض الموجز يتضح كيف أحل الإسلام والمعرفة الصحيحة النافعة محل التقليد الأعمى وكيف عرض تعاليمه لكل ناظر ينظر بعقل قويم وقلب سليم فيتبين بعد النظر الصحيح كيف أن الإسلام أسعد البشرية نظريا وعمليا ومن تمام الفائدة أن أشير إلى النظر من الوجهة العقلية فهو فكر يتوصل به إلى العلم أو غلبه الظن ومعنى هذا أن الإسلام لا يقنع بخيالات أو أوهام وكذلك لا يقنع بفكر يوصل إلى جهل أو خرافة ونصوص الإسلام تعصم العقول من الزلل أو الحيدة عن الطريق حتى لا يضل الإنسان في متاهات الفكر وبيداء الحياة .

وبنظرة عادية إلى الإسلام نجده يطلب من الإنسان أن يحاسب نفسه وينصف الناس منه ويعطيهم حقوقهم ويحكم على نفسه بنفيه، ويقول : إذا

---

(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ١٦٤ .

عوملت أنا هذه المعاملة التي أعامل بها غيري فكيف يكون موقفي ؟ وبماذا أشعر ويضع نفسه موضع غيره في كل ما يريد أن يعمله .

وإذا كان شطر الإسلام باعتباره دينا ودولة وهو[1] شطره التعبدي التهذيبي قد استقرت أصوله وكملت قواعده في حياة النبي ﷺ فإن شطره العملي، وهو شطره النظامي في الحياة في صورة دولة تقوم على تطبيق شرائعه وقوانينه وبسط سلطانها على العامة والخاصة لأقرار الحق والعدل بين ابناء الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، لا يزال باقيا يتجدد بتجدد الاعصار والأجيال ويتبلور في صور من الواقعية كلما جدت الأحداث .

وهذا الشطر من الإسلام لا يزال دينا في عنق الأمة الإسلامية يجب عليها تنفيذه، ورعايته ولو بالقوة القاهرة في نظام التعازير والحدود الزاجرة وفي صورة القتال إذا قامت أسبابه . ومن ثم ترك الإسلام للأمة أمر نظام الدولة وأسلوب الحكم وعنوان الحاكم تختاره على مقتضى «تطور» الحياة الصالحة على مدراج الزمن بعد أن ضمن لها مقومات البقاء [2] .

أقول وبالله التوفيق : في هذا المقال يتضح كا بين الكاتب سماحة الإسلام وسموه في كل الأمور التي من شأنها أن تقود الأمة إلى ما فيه إصلاحها عاجلا وآجلا وسوّى بينهم في ذلك تسوية تامة .

يقول محمد عطية في كتابه : عظمة الإسلام ففي الإسلام مساواة بين الرجل والمرأة في الثواب والعقاب وفي التربية والتعليم ولا يتميز الرجل عليها إلا أنه مطالب بالإنفاق عليها ورعايتها والدفاع عنها . قال جل شأنه في موقف المرأة : ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾ [3] .

---

(١) الموسوعة الاسلامية : ١/٥٠٥ .

(٢) عظمة الاسلام : ٢/٢٥١، محمد عطية .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٨، المعجم المفهرس ص ٢٥٦ .

وحينما بدأ النبي ﷺ ينشر مبادىء الإسلام وقواعده نشرها بين الرجال والنساء سواء من غير تفرقة .

أقول وبالله التوفيق : من سماحة الإسلام ترغيبه لأهله كي يبذلوا الجهد للغير فقد رغب الإسلام في الصدقة بصفة عامة وفي عتق الرقبة لانقاذ المسلم من الرق ، وكما أن الإسلام يسير بخطى متزنة فقد نهى المسلم عن التصدق بماله كله حتى لا يبقى عالة يتكفف الناس .

قال ابن خزيمة في صحيحه [(١)]: حدثنا الدورقي يعقوب بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن ادريس قال : سمعت ابن اسحاق يذكر، وحدثنا محمد بن رافع [(٢)] حدثنا يزيد يعني : ابن هارون، أخبرنا محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن جابر بن عبد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ببيضة من ذهب أصابها من بعض المعادن ، وقال الدورقي : مثل البيضة من الذهب قد أصابها من بعض المعادن، وقالا : فقال يارسول الله خذ هذه مني صدقة فوالله ما أصبحت أملك غيرها فاعرض عنه ثم أتاه من شقه الأيمن فقال : مثل ذلك فأعرض عنه ثم أتاه من شقه الأيسر فقال له مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم قال له الرابعة، فقال له : «هاتها مغضبا» فحذفه بها حذفة لو أصابه لشجه أو عقره ثم قال : «يأتي أحدكم بماله كله فيتصدق به، ويتكفف الناس إنما الصدقة عن ظهر غني» هذا حديث ابن رافع وزاد الدورقي خذ عنا مالك لا حاجة لنا فيه، والمراد بقوله ﷺ : عن ظهر غني عما يغنيه ومن يعول، أفضل الصدقة جهد المقل كما جاء في حديث أبي هريرة : (حدثنا عيسى بن إبراهيم الغافقي، حدثنا ابن وهب عن الليث أن ابن الزبير حدثه ، وحدثنا عمرو بن علي حدثنا ابن الوليد حدثنا الليث بن سعد

---

(١) صحيح ابن خزيمة بتحقيق الدكتور محمد مصطفى الاعظمي ٩٨/٤ ط ١ .

(٢) ضعيف الاسناد محمد بن رافع القشيري النيسابوري ثقة عابد من الحادية عشرة مات سنة ٤٥١ هـ خ/م ــ د ت س /التقريب : ١٦٠/٢ .

عن ابي الزبير عن يحيى عن جعدة عن أبي هريرة أنه قال : يارسول الله أي الصدقة أفضل . قال : « جهد المقل وابدأ بمن تعول » . (١)

أقول وبالله التوفيق : هكذا نرى السماحة حلت في كل شيء بالتساوي وعدم الضياع ففي الوقت الذي ترغب فيه في البذل تحذر فيه من التهور والاسراف فالاسلام لا يرضى من المسلم أن يبقي مكتوف اليد كما لا يرضى منه الجشع وعدم مد يد المساعدة للغير وقد فصلت الآيات البينات ذلك أحسن تفصيل . قال تعالى : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ (٢) .

---

(١) قوله في هذا الحديث : وابدأ بمن تعول . هذه اللفظة أخرجها مسلم في صحيحه : ٩٦/١ وأحمد في مسنده ٤٧٥/٢، والترمذي : ١٣٢/١، وقال : حديث حسن صحيح، والحديث له طرق كثيرة ذكرها الالباني في اروي الغليل في تخريج منار السبيل : ٣١٣/٣، ونذكر هذه الطرق وأصحابها ليتبين لنا وضع الحديث وأنه صحيح ورجاله ثقات .

الطريقة الأولى هي : المبينة اعلاه والحاملة لرقم واحد .

والطريقة الثانية طريق سعيد بن المسيب وهي في البخاري : ٣٦١/١ : «خير الصدقة ما كان عن ظهر غني وأبدأ بمن تعول» . وهي في النسائي أيضاً : ٣٥٣/١ . والبيهقي : ١٨٠/٤ وأحمد : ٤٠٢/٢ .

الطريق الثالثة : عن محمد بن عجلان عن أبي هريرة أخرجها النسائي : ٣٥١/١.

الطريق الرابعة : عن أبي صالح عن أبي هريرة أخرجها البخاري : ٤٨٥/٤ وأبو داود: ١٦٦٧، والدارقطني : ٤١٥، وأحمد : ٤٧٩/٢ و ٤٨٠ و ٥٢٤، و ٥٢٧ وزاد في رواية من نعول يارسول الله : قال : «امرأتك ممن تعول تقول أطعمني وإلا فارقني، وجاريتك تقول اطعمني واستعملني، وولدك يقول إلى من تتركني» وإسنادها جيد، لكن في البخاري أن أبا هريرة سئل عن هذه الزيادة فهل هي من رسول الله ﷺ ، فقال : هذا من كيس أبي هريرة ، أرواء الغليل : ٣١٦/٣ ــ ٣١٧ ، محمد ناصر الدين إلا الثاني .

(٢) سورة الاسراء الآية ٢٩ .

وهذا خطاب للرسول ﷺ ونحن أمته داخلون فيه، وهكـــذا نرى السماحة مرة أخرى تتطرق وتجول بين كل سهل وصعب حتى تجنب الإنسان المسلم [١] كل شيء يعن له في حياته كي لا يكون هنـاك صعب يرتقـى، والمساواة الإنسانية من ضمن هذه السماحة أعني : سماحة الإسلام التي كنا نتكلم عليها قريباً، ذلك أن الإسلام يأخذ الأمر من جميع جوانبه ومن نواحيه جميعاً فيكفل التحرر الوجداني ويكون تحررا مطلقاً لا يقوم على المعنويات وحدها ولا على الاقتصاديات وحدها ولكن يقوم عليها جميعا فيعرف للحياة واقعها وللنفس طاقتها ويستشير في الطبيعة البشرية غاية أشواقها وأعلى طاقاتها ويدفع بها إلى التحرر الوجداني كاملا صريحا فبغير التحرر الكامل لن تقوى على عوامل الضعف والخضوع والعبودية ولن تتطلب نصيبها من العدالة الاجتماعية ولن نصبر على تكاليف العدالة حين تعطاها، وهذا التحرر هو أحد الأسس الركيزة لبناء العدالة الاجتماعية في الإسلام بل هو الركن الأول الذي تقوم عليه الأركان .

يقول سيد قطب : إذا استشعر الضمير كل هذه التحررات الوجدانية خلص من كل ظل للعبودية إلا الله وآمن الموت والأذى والفقر والذل إلا بإذن الله . وانقلب من ضغط القيم الاجتماعية والمالية، ونجا من ذل الحاجة والمسألة، وتسامى على شهواته ومطامعه وتوجه إلى الخالق الواحد الأحد الذي يتوجه له الجميع بلا استثناء ولا استعلاء ووجد بعد ذلك كله كفايته من ضرورات الحياة مكفولة له بحكم التشريع والنظام .

إذا ا ستشعر الضمير البشري هذا كله ووجد من الضمانات الواقعية والقانونية ما يؤكد في نفسه هذا الشعور فلن يكون في حاجة لمن يهتف له بالمساواة لفظاً [٢] وقد استشعرها في أعماقه معنى ووجدها في حياته واقعا،

---

(١) العدالة الاجتماعية في الاسلام ص ٥٠ ط ٨، سيد قطب .

(٢) بين الجاهلية والاسلام : ص ١٢٦، محمد مهدي شمس الدين .

بل لن يصبر على التفاوت القائم على تلك القيم إطلاقا . سيطلب حقه في المساواة وسيجاهد لتقرير هذا الحق وسيحتفظ به حين يناله ، ولن يقبل منه بديلا، ولن يكون الفقير والضعيف وحدهما الحريصين على مبدأ المساواة النابع من الضمير المصون بالتشريع المكفول بالاكتفاء وحرية النشاط والارتزاق ، بل أن الغني والقوي سينزلان عنده بحكم استشعار ضميرهما تلك المعاني التي حرص الاسلام على تقريرها وتثبيتها فيما أسلفنا .

يقول سيد قطب : وذلك ما وقع بالفعل في المجتمع الإسلامي قبل أربعة عشر قرنا .

أقول وبالله التوفيق : هذا القرن الذي أشار اليه هو الذي وقع فيه الإيثار على النفس ووقع فيه الجهاد والتسابق إلى الخيرات لأن نور القرآن لا يزال آن ذاك ساطعا في القلوب وأمام العيون فينهل منه المسلم كل حين فلا يمل من فعل الخير والقيام به .

يقول محمد مهدي : [1] أن حركة تقدم البشرية التي قادتها رسالات الله تعالى إلى الناس على لسان انبيائه ورسله وما أنزل عليهم من وحي هذه الحركة العظيمة العريقة في عمر الزمان والإنسان والحركة التي قامت آن ذاك قامت تسير في ضوء الكتاب والسنة . قال تعالى : ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وان الله بكم لرؤف رحيم﴾ [2]. وقال جلّ ذكره : ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾[3] .

---

(١) عظمة الاسلام : ٣١/٢، محمد عطية الابراشي .

(٢) سورة الحديد : الآية ٩ .

(٣) سورة المائدة الآية ١٥ ــ ١٦ .

أقول وبالله التوفيق : هذه الآيات وما تهدف إليه تدل على أن القرآن هو حجة الإسلام الكبرى بالإضافة إلى أنه هو المعجزة الخالدة .

يقول محمد أبو زهرة : (١) قد حارب الأوهام لأنه دعا العقول إلى النظر في الكون والتعرف على أسراره وعجائبه ودعا إلى تحكيم العقل في كل ما يدرس من قضايا سواء كانت كونية أم كانت تشريعية . ودعا إلى اتباع الحق وما حكمت به شرائع الله على أهل الأرض، وأنه إذا دعا إلى النظر العقلي في كل ما يتعلق بالكون ونواميسه فقد وضع الأساس لمحاربة الأوهام والأخيلة الفاسدة حيثما كانت ، والأوهام تعشش دائما في عش التقاليد من غير تفكير وقد حاربه القرآن وبذلك هدم البناء الذي تقوم عليه الأوهام والخبايا التي تعشش فيها فقتل مواليد الأوهام في مهدها وأمات بذورها في خبئها .

أقول وبالله التوفيق : إذا كنت تكلمت فيما مضى على سماحة الإسلام ومساواته للناس فإن من ضمن هذه المسواة «العدالة» التي لا مثيل لها في القرآن فقد أمر القرآن بالأستشارة وكان الرسول ﷺ له مستشارين أمر بأن يشاورهم في الأمر وقال محمد عطية في كتابه عظمة الإسلام (٢) بعد ايراده لما قدمت ، قال : هذا كثير جداً مما يؤيد القاعدة التي كانت تسير عليها الحكومة الإسلامية منذ فجر الإسلام وهي قاعدة المشورة وتبادل الرأي وهي : أساس النظام الدستوري الديمقراطي وقد أثر عن رسول الله ﷺ قوله : «اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كان رأسه زبيبة» (٣)

---

(١) المجتمع الانساني في الظل الإسلامي : ص ٢٤ محمد أبو زهرة .

(٢) كتاب عظمة الإسلام : ٣١/٢ ــ ٣٢ .

(٣) الحديث متفق عليه أخرجه البخاري عن مسدد، عن يحيى، عن شعبة، وأخرجه مسلم من طريق أبي ذر قال أوصاني خليلي أن اسمع وأطيع وإن كان عبدا مجدع الأطراف ورواية المتن هنا هي رواية البخاري : ١١١/١٣ في الاحكام وفي الجماعة باب إمامة العبد والمولى، وباب إمامة =

فالرسول ﷺ يأمر بطاعة أمير المسلمين ولو كان عبدا حبشياً أسود اللون والرأس هذا روح الديمقراطية الإسلامية تلك الديمقراطية التي تنادى بالمساواة بين جميع الطبقات ولا تفرق بين الأغنياء والفقراء والسادة والعبيد ولا تفكر في الحسب والنسب والمال والجاه واللون الأبيض والأسود ولا تقول بالتفرقة العنصرية ومن الأسباب التي جعلت سادة قريش يتآمرون على قتل الرسول ﷺ مطالبته بحقوق الفقراء والمساكين والضعفاء والعبيد، فخاف الأشراف أن يرفع أصحاب محمد إلى مصافهم، فأخذوا يكيدون له ويدبرون المؤامرات لقتله والتخلص منه لاعتقادهم أن هذه بدعة ابتدعها محمد ضدهم، وكيف يخالف محمد ﷺ النظان الإنساني المثالي بنظام الإسلام وروحه وقد أمره الله بعد نزول سورة «عبس» وبعد أن عاتبه الله في حادثة عبد الله بن أم مكتوم **الأعمى الفقير فقد** جاء إلى النبي ﷺ وهو مشغول بإشراف قريش رجاء إسلامهم فقطع الأعمى الرسول عما هو مشغول به وناداه : علمني مما علمك الله فانصرف النبي ﷺ عنه فعوتب في ذلك بما نزل في هذه السورة : ﴿عبس وتولى إن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾[1] إلى آخر الآيات فكان النبي ﷺ بعد ذلك إذا جاء يقول له :

= المفتون والمبتدع، وأخرجه مسلم (١٨٣٧) في الامارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، قال ابن حجر في الفتح : ٢٣٩/١٦ قوله : (كان رأسه زبيبة) واحدة الزبيب المأكول المعروف الكائن من العنب إذا جف وإنما شبه رأس الحبشي بالزبيبة لتجمعها ولكن شعره أسود وهو : تمثيل في الحقارة وبشاعة الصورة وعدم الاعتداد بها، والحديث أيضاً اخرجه أبو داود الطيالسي (٢٠٨٧)، وقد جاءت عدة أحاديث متفق عليها في هذا المعنى منها حديث عبد الله عن النبي ﷺ قال : «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» وهذا أيضاً متفق عليه أخرجه البخاري : ١٢١/١٣ ، في الاحكام، والجهاد، ومسلم (١٨٣٩) في الامارة : باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية، وهذه الاحاديث موجودة في كتاب شرح السنة للبغوي : ٤١/١٠ ـــ ٤٣ .

(١) سورة عبس : الآية ٢، ٣، ٤ .

«مرحبا بمن عاتبني فيه ربي ويبسط له رداءه» وفي هذه السورة تبدوا الديمقراطية الإسلامية بأحلى معانيها فالأعمى الفقير الذي يريد أن يسلم حقا ويتمسك بأخلاق الإسلام ويخاف الله خير عند الله من هؤلاء الأشراف والأغنياء وذوي الجاه وفيها يُذكّر الله نبيه وفي صورة عتاب بأن ضعف ذلك الرجل الأعمى وفقره لا يجوز أن يؤديا إلى الإعراض عنه لأنه مؤمن بقلبه وفؤاده حيي بشعوره واعتقاده، فأنت ترى أن الله أخذ النبي ﷺ بالمساواة بين الطبقات في المعاملات فلا فضل لغني على فقير إلا بالتقوى ولا دخل للثروة والغنى واللون والنسب في تفضيل رجل على آخر .

أقول وبالله التوفيق : خلاصة القول أن الإسلام ليس فيه اعتبارات يمتاز بها الأشراف والأغنياء عن الفقراء ينادي بالمساواة في الحقوق المدنية والدينية . قال عز ذكره : ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾[1] .

وبعد أن بينا ما بيننا من سماحة الإسلام ومساواته بين أهله[2] وديمقراطيته ننظر إليه أيضاً من زاوية الحرية ومن خلال هذه النظرة نجد أن الكاتب بين في كتابه أن مباديء الديمقراطية هي : الحرية والتآخي والمساواة والتشاور في الأمر ، ويمكننا أن نقول أن الإسلام قد سبق مدنية القرن العشرين وسبق الأمم المتمدنة وهو : دين حرية لا يشك أحد في أن الإسلام دين رق وعبودية فهو ضد الاسترقاق والاستعباد وقد عرف الرق من قديم الزمان عند اليونانيين والرومان واليهود وكان الإسنان يباع ويشترى كأي سلعة من السلع ويعامل معاملة تنفر منها الإنسانية فكان هناك سادة وعبيد فقضى الإسلام على هذا وحث في كثير من الآيات على تحرير العبيد والارقاء وحسن معاملتهم .

---

(١) سورة النجم : الآية ٣٩ — ٤١ .

(٢) عظمة الاسلام : ٣١/٢ — ٣٢ .

وبعد هذه الكلمة الموجزة عن الإسلام ومصالحه العليا أنتقل إلى الكلام على الفصل الأخير المشتمل على إنكار الوحدانية وعبادة الأصنام واحلال التوحيد محل هذا ــ ويدخل في هذا الفصل الكلام على التشاؤم، والنذر لغير الله، والبحيرة والسائبة والوصيلة، والحام، وإحلال ما شرعه الله للتقرب إليه محل هذا .

والله أسأل أن أكون قد اتيت بالمطلوب على الوجه المرغوب .

الفصـــل الثـــاني

في إنكار الوحدانية وعبادة الأصنام

وإحلال التوحيد محل هذا

إنكار الوحدانية وعبادة الأصنام

وإحلال التوحيد محل هذا

قال الله تعالى : ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذي القوة المتين﴾ [1] .

هذه الآية من كتاب الله عز وجل مبينة للعلة التي خلق الله لأجلها هذا الخلق من يوم خلق السموات والأرض إلى يومنا هذا ألا وهي عبادته سبحانه عبادة خالصة لوجهه الباقي فلا يراد منها سوى وجه الله، ولا نجاة للمخلوق في المحشر بدونها ، ولاشك أن للإنسان السعادة أن جاء بها تامة على الوجه المطلوب .

وقبل الدخول في هذا الباب الواسع نبين أن الله سبحانه وتعالى لا يقبل أن يكون هناك عمل ما يشاركه فيه مخلوق ما . لقوله في الحديث القدسي : « أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك معى فيه غيري تركته وعمله» وهنا في البداية أيضاً نذكر أن من شروط قبول العمل أن يراد به وجه الله وأن يكون خالصا لوجهه تعالى وأن يوافق الشرع الذي شرعه لعباده فمن جاء بزيادة أو نقصان فقد جاء بأمر مردود عليه لقوله ﷺ : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» ، أي : مردود عليه عمله .

ذلك الذي عمل بسبب ما أحدثه فيه فالطريق واضحة ومضاءة بالكتاب والسنة فلا حاجة في السؤال من أين نبدأ ولا أين ننتهي فقد بين الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك بيانا شافياً وكافياً لطالب الحق، ولله الحمد في الأولى والآخرة .

---

(١) فرقان القرآن بين صفات الرحمن وصفات الأكوان : ص ٢٣ .

أقول وبالله التوفيق : الآن بعد هذه النبذة القليلة نبدأ بالأدلة على ثبوت وحدانيته ووجوده سبحانه وتعالى عما يقول الكافرون والملحدون أن جميع الكائنات جملة وتفصيلا ليس وجودها من ذاتها، ولا وجب لها الوجود[1] ، ولا من معدوم فإن المعدوم فاقد الوجود وفاقد الشيء لا يعطيه، بالضرورة فلا بد أن يكون واهب الوجود لها موجودا سواها ، والموجود الذي ليس هو بممكن إنما هو واجب الوجود لايشك في ذلك أحد ومن أجل ذلك قالت الرسل عليهم الصلاة والسلام للأمم : «أفي الله شك فاطر السموات والأرض» وقال الخلاق العليم ينبه العقول إلى هذه القضية التي هي أوضح من الشمس ، وهي : أن ترجيح وجود الممكن على عدمه بلا موجد واجب وجوده محال ، قال تعالى : ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾ [2] فانظر إلى سياق القرآن هذا البرهان الساطع والدليل النّاصع على هذا النظم العجيب والأسلوب الآخذ بألباب أولي النهى إلى جلية الحق .

روى مسلم في صحيحه عن عن جبير بن مطعم أنه قدم المدينة وهو مشرك فإذا رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب سورة «الطور» قال : فأصغيت إلى قراءته حتى إذا بلغ قوله تعالى : ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ إلى آخر الآية كاد قلبي يطير وأدخل الله الإسلام على قلبي .

وأي أسلوب أعجب من هذا فقد سيق هذا البرهان لا على الطريق التي تدع لنفس السامع مجالا في التردد ، ولكن السبيل التي تقهر النفس على قبول الحق قهرا، وتفسرها عن تلاعب الأوهام بها قسرا، فإن الآية قد جعلت حدوث الحادثات، والحادث ممكن كما أسلفنا فوجوده بلا موجد يكون واجب الوجود من الأباطيل التي بطلانها في حيز الظاهر المكشوف، الذي ينكر على

---

(١) فرقان القرآن بين صفات الرحمن وصفات الأكوان : ص ٢٣ ــ ٢٤ .

(٢) سورة :

من قال به إنكارا فإن «أم» في الآية الكريمة بمعنى : بل وهمزة الإستفهام وهو هنا إنكاري بمعنى : النفي ولله الحجة البالغة على خلقه فإن الناس ما كانوا شيئاً مذكورا[1] كما قال تعالى : ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا﴾ ثم كانوا ووجود المعدوم بلا سبب موجود محال بداهة، وكون المعدوم أوجد نفسه أظهر في الإستحالة وأبعد في الامتناع، وواضح أن من لا يملك وجود نفسه لا يستطيع أن يعطي الوجود لسواه، وعسى أن يكون قد بان ذلك ان شاء الله، ان جميع الممكنات الموجودة سواء كانت ذوات أو صفات فقيرة كل الفقر في جميع أطوارها، وكل تقلباتها إلى من تعالى وجوده عن الأماكن .

وجلت صفاته عن النقصان قال القضاعي : ولا يستخفنك أولئك الذين تعبدتهم المادية واضاعت ظلمات الشهوات أفهامهم فأنكروا الملك القدوس واجب الوجود فليسوا من العلم الصحيح بهذه النظرية في كثير ولا قليل فإنهم أخذوا على أنفسهم لا يؤمنون إلا بما به يحسون، وقصروا لفظ العلم على ما يدرك بالحواس، فانى لهم وهذا شأنهم أن يظفروا بمعرفة من تعالى عن الحواس وتقدس عن مشابهة المادة، والماديات التي انقطعوا إليها وما عرفوا إلا قليلا من ظواهرها، على إتساع معاملهم وكثرة ابحاثهم، رأوا الكائنات المادية تجري على نظم محكمة وقواعد مضبوطة يعبرون عنها بالنواميس حتى أنك لتسمعهم يقولون : أن الطبيعة لا تلقي شيئاً جزافا فاستدلوا بهذا النظام المدهش لأساطين المفكرين على إنكار واضعه جل جلاله ولو كان الجزاف سائداً في الكون لكان للمنكر شيء من الشبهة، أما وهم المعترفون بالنواميس ودقتها والنظم واحكامها في الكون كله من أصغر شيء وأحقره إلى أكبر شيء وأعظمه فقد اندحرت كل شبهة وقام اسطع البراهين لا على وجود الخالق

---

(١) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان ص ٢٤ ـــ ٢٥ .

فحسب بل على كمال رحمته وحكمته وعنايته إلى غير ذلك من صفات مجده الأعلى وكماله الأسنى[1] .

يقول سبحانه : ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ [2] ويقول جلّ ذكره : ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ وقال أيضاً : ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ .

فوجود الكائنات ناطق بوجود واهبها واكمال وجودها وتوابعه صارخ بجلال كماله وعظيم حكمته ومناد بشدة ظهوره وسطوع نوره حتى لهو عند أهل الانظار السديدة والأفكار الرشيدة أظهر من الشمس وابين من كل ما يحس، بل الكائنات كلها ظلمة وهو نورها فإنها به كانت وبه تبقى فهو موجدها وقيومها فإن وجود ذواتها وصفاتها لا يستفاد إلا منه وحده قال تعالى : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ فالشيء في هذه الآية هو الموجود وكل موجود سواه سبحانه فهو مملوك غير مالك، ولا لوجوده حال تصافه به فهو من حيث ذاته هالك بالفعل ، والكلية في الآية على هذا التقرير لا يستثنى منها إلا ما استثنت الآية وهو الحق جلت ذاته وتعالت صفاته .

قال القضاعي : ولك أن تقول في الآية : أن الهالك بمعنى القابل للهلاك وإن لم يقع هلاكه بالفعل فتكون الآية مقررة لنفي وجوب الوجود عن جميع الكائنات ماضيها وحاضرها وآتيها ومثبته لامكانها فإن ما وجب وجوده لا يقبل الزوال كما مر ولا يقبل الهلاك إلا الممكن وعلى هذا التقرير فعموم الآية على ما هو عليه فيها لا يخص منه إلا الواحد الوهاب وما بقي منها أبدا كالجنة والنار وأصحابهما فإنما بقاؤه لإرادة الخالق ذلك وليس لأنه لا يقبل الهلاك، والكلام في الآية الكريمة مسوق الاثبات وحدانيته في الأولوية على

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥ ــ ٢٧ .

(٢) سورة النمل الآية ٨٨ .

طريقة برهانية معجزة في إيجازها كعادة القرآن في شأنه كله، وبسط هذا المعنى الشريف أن يقال كيف تدعون مع الله إلها آخر وتدعونه أي تعبدونه .

والإله يجب له الكمال الأكمل والكائنات كلها واقعه من النقص [1] في الدرك الأسفل فما رأيتم هلاكه بالفعل فهو ظاهر النقصان بدهي الإمكان لا يحتاج في نفي الألوهية عنه إلى بيان وكل ما تظنون دوامه وتتخيلون له عزة البقاء فهو قابل للهلاك والفناء ، فأين هو ما تدعون، فهو بمعزل عن التقدم، فإن الموجود الذي له القدم يستحيل عليه العدم، فإنه لا يكون قديماً إلا إذا كان واجب الوجود لذاته .

أقول وبالله التوفيق : أن الكلمة الموجزة التي قدمت عن وحدانيته سبحانه وتعالى وإن كان ذلك لا يحتاج إلى برهان لولا أن الذكرى تنفع المؤمنين، ونظراً لقوله ﷺ : «فرب مبلغ أوعى من سامع» . تبرهن هذه الأدلة على أنه سبحانه وتعالى واجب الوجود [2]وموجد المفقود ، أن عقيدة الإسلام في أصلها أقدم في التاريخ البشري من العقائد الوثنية كلها وجدت كاملة منذ وجدت لأنها ليست نابعة من أفكار البشرية ومعلوماتهم المترقبة إنما هي آتية من عند الله سبحانه وتعالى فهي حق من اللحظة الأولى وهي كاملة منذ اللحظة الأولى هذا ما يقرره القرآن الكريم، ويقوم عليه التصور الإسلامي .

فقد هبط آدم إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها بعد أن تلقى من ربه كلمات فتاب عليه وأخذ عليه العهد والميثاق أن يتبع ما يأتيه من هدى الله ولا يتبع الشيطان فإنه عدوه وعدو الله .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧ .

(٢) العقيدة الاسلامية، للدكتور كمال محمد عيسى ص ١٣٥ .

قال تعالى : ﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون﴾ [1] .

هبط آدم إلى الأرض مسلما لله متبعا هداه، وما من شك في أنه علم بنيه الإسلام جيلا بعد جيل وأن الإسلام كان أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض ثم انحرفت عن الإسلام بفعل الشيطان عدُو الله وعدُو الإنسان وعبدت يغوث [2] ويعوق ونسرا ، فجاء نوح ومن بعده من المسلمين ليعيدوها إلى أول عقيدة عرفت في الأرض أنها الإسلام القائم على الألوهية والربوبية ، كذب علماء الأديان المقارنة القائلين بتطور العقيدة من التعدد إلى الانتخاب ثم التوحيد .

أقول وبالله التوفيق : في هذا المقام وحين دخلنا في هذا البحث يجدر بنا أن نبين أنواع التوحيد في ظل الكتاب والسنة، فالتوحيد أقسام ، أولاً : توحيد الربوبية وهو توحيد الله بأفعاله .

قال تعالى : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله، فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فانى تصرفون﴾[3] .

هذه الأسئلة يوجهها الله على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام إلى المشركين في مكة ومن على شاكلتهم من أهل الإلحاد والشرك في كل زمان ومكان، أنها توجه العقول إلى ما يجري حولها من نعم الله يلمسونها في

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٨ .

(٢) عقيدة الاسلام : ص ١٣٦ .

(٣) سورة يونس : الآية ٣١ .

واقعهم يعلمونها في نفوسهم، يشاهدونها في حياتهم إنها تلك : من يرزقكم من السماء والأرض؟ من ماء ونبات وطير وأسماك، ومعادن، وحيوانات، ودفء، وحرارة، وضياء، وهداية .

قال تعالى : ﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم ترعونه أم نحن الزارعون، لو نشأ لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون﴾ [١] الآية ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون﴾ وقال جل ذكره : ﴿أمن هذا الذي يرزقكم أن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور﴾ [٢] يسأل الله سبحانه العبيد أن امسك رزقه ، أو أمسك ماءه، من يأتي برزق، من يأتي بماء يشرب صالح للشرب ، ﴿قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين﴾ ويسأل أيضا سبحانه عمن يملك السمع والبصر.

أم هي المنقطعة بمعنى : بل تفيد أضراب الانتقال[٣] من سؤال إلى سؤال من يستطيع خلقها؟ من يستطيع تسويتها؟ من يقدر على حفظها من الآفات؟ من يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها .

ان العلم يكشف عن دقائق صنع الله، فيها مما يلوي أعناق المكذبين المشركين ومن هنا كانت هذه الأعضاء امانة عند صاحبها وكان مسؤولا عنها أمام واهبها فيقال للإنسان يوم القيامة لم سمعت ما لا يحل لك سماعه لم نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه ، لم عزمت على ما لا يحل لك العزم عليه . ﴿ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا﴾ .

من يخرج الحي من الميت أي : الطائر من البيضة والنبات من الحبة والإنسان من البويضة .

---

(١) سورة الواقعة : الآيات ٦٣ ــ ٦٧ .

(٢) سورة الملك : الآية ٧١ .

(٣) العقيدة الاسلامية : ص ٣٠ .

من يخرج الميت من الحي ، أي[1]: البيضة من الطائر والحبة من النبات والبويضة من الإنسان وما أعجب ذلك حتى بعد أن أثبت العلم أن في كل منها حياة واستعدادا ، أين كانت تكمن السنبلة في الحبة، وأين كان الفرخ في البيضة؟ أين كان الكائن البشري في البويضة ينقضي العجيب ولا تفسير له ولا تأويل إلا قدرة الله وخير مثل يعطيه العلم لإخراج الحي من الميت والميت من الحي هو : الدم الحي في الجسم الحي يتولد من الطعام الذي يموت بالطهو والنار ثم يتحول هذا الدم الحي إلى فضلات ميتة بالاحتراق، من يدبر الأمر أي : من يقدره ويقضيه بين الخلائق وهذا من عطف العام على الخاص، من يدبر حركة الافلاك؟ من يدبر حركة الحياة، من يدبر السنن الاجتماعية بين الناس، فسيقولون الله، هذا جوابهم عن كل سؤال بأنه الله ، ﴿فقل أفلا تتقون﴾ .

ما بالكم لا تخشون قدرته وتشركون في العبودية سواه، ثم يتبعهم القرآن مؤيداً إجاباتهم منددا بانحرافهم عن الفطرة، وإنصرافهم عن التوحيد إلى الشرك ومن الحق إلى الضلال، والحق واضح لا يتعدد : ﴿فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فانى تصرفون﴾ .

---

(١) في ظلال القرآن : ص ١٧٨ .

ثانياً : توحيد الألوهية

توحيد الألوهية هو : توحيد الله بأفعال خلقه، هناك[1] أعمال تصدر من العباد لا يصح أن يتوجهوا بها إلا إلى الله وحده لأنها تخص الله عز وجل دون سواه فإن اتجهوا بها إلى غيره فقد وقعوا في الشرك منها الدعاء .

قال تعالى : ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ [2] .

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ لكن الناس في تناقض عجيب فحين يكونون على صفحة الماء تلعب بهم الرياح وتتقاذفهم الأمواج تستيقظ فطرتهم التي تحس وحدانية الله فيلبون نداءها ويستجيبون لوحيها لجوء إلى الله بمشاعرهم، ودعاء اليه بألسنتهم ، فإذا نجوا إلى البر وآمنوا المخاوف عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله ودعاء لغير الله .

أقول وبالله التوفيق : من هذا النوع الثاني من التوحيد الذي التزمت تبينه في هذا البحث : النية والقصد، قال تعالى : ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾[3] .

إختلف المفسرون في هذه الآية فقال الضحاك : نزلت في الكفار وأهل

---

(١) العقيدة الاسلامية : ص ١٤ .

(٢) سورة غافر : الآية ٦٠ .

(٣) سورة هود : الآية ١٥ .

الشرك واختاره النحاس، وقال أنس : نزلت في اليهود والنصارى، وقيل نزلت في المنافقين والأولى حملها على العموم لتشمل الناس كافرهم ومسلمهم وإذا كانت النية مدار الثواب والعقاب في الأعمال يرجع اليها لقوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات» . وهذا حديث صحيح ثابت وسنتكلم على صحته بعد قليل بحول الله تعالى .

فإن من قصدوا بعمل الخيرات والطاعات الدنيا وحدها وأرادوا بسعيهم زخارفها الكاذبة ومتعتها الزائلة من ثراء ورياء ينالون أجور اعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا رزقا وصحة ومتاعا لكن ليس لهم في الآخرة إلا النار فكل عملهم هابط باطل حيث لم يريدوا به الآخرة، وفي الحديث القدسي : «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم . وفي هذا القسم من التوحيد حقوق لله عز وجل منها حق التشريع قال تعالى : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون﴾ . وقد فسر النبي ﷺ هذه الطاعة بطاعتهم في تحريم ما أحل الله

الكلام على الحديث المتقدم :

(١) الحديث فرد غريب صحيح ، قال الحافظ أبو بكر البزار بعد تخريجه ـــ فيما نقل عنه العراقي (ص٨٥) : لا يصح عن النبي ﷺ إلا من حديث عمر، ولا عن عمر إلا من حديث علقمة، ولا عن علقمة إلا من حديث محمد بن إبراهيم، ولا عن محمد بن إبراهيم إلا من حديث يحيى بن سعيد).

(٢) قال ابن حجر العسقلاني في النخبة : حديث : «إنما الاعمال بالنيات فرد لم يروه عن عمر إلا علقمة . قلنا : قد خطب به عمر رضي الله عنه على المنبر بحضرة الصحابةفلولا أنهم يعرفونه لأنكروه كذا قال ، وتعقب بأنه لا يلزم من كونهم سكتوا عنه أن يكونوا سمعوه من غيره وبأن هذا لو سلم في عمر منع في تفرد علقمة ، فالحديث فرد كما بينت، والغريب والفرد مترادفان لغة =

---

(١) الباعث الحثيث في علوم الحديث ص ٥٧ الهامش .

(٢) نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر ص ٢٥ .

وتحليل ما حرم ، فإن قيل قد قال تعالى : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ [1] قيل هم العلماء وقيل هم الأمراء وهما روايتان عن أحمد قال ابن القيم [2] : والتحقيق : أن الآية تعم الطائفتين، قيل إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله، فالأمراء منفذين له، فحينئذ تجب طاعتهم تبعا لطاعة الله ورسوله ، كما قال ﷺ : «لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف» [3] . وقال أيضاً : «على المرء المسلم السمع والطاعة مالم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة» فليس في هذه الآية ما يخالف

= واصطلاحا إلا أن أهل المصطلح غايروا بينهما حيث كثرة الاستعمال وقلته فالفرد أكثر ما يطلقونه على الفرد المطلق والغريب أكثر ما يطلقونه على الفرد النسبي وهذا من حيث اطلاق الأسمية عليهما . وأما من حيث استعمالهم الفعل المشتق فلا يفرقون، يقولون في المطلق والنسبي تفرد به فلان . أو اغرب به فلان ، وهذا مثل اختلافهم في المرسل والمنقطع هل هما متغايران أم لا؟ وعلى أية حال هذا الحديث تواتر النقل عن الأئمة في تعظيمه فقد اتفق عبد الرحمن بن مهدي والشافعي فيما نقله البويطي عنه، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، وأبو داود، والترمذي، والدارقطني، وحمزة الكناني على أنه ثلث العلم، ومنهم من قال ربعه واختلفوا في تعيين الباقي .

وقال بن مهدي : يدخل في ثلاثين بابا من العلم ، وقال الشافعي : يدخل في سبعين بابا، وقد أخرجه الأئمة في كتبهم، سوى مالك بن أنس ووهم من زعم أنه في الموطأ وقد جاء هذا الحديث بلفظ الأعمال والنيات بالجمع، وجاء بالافراد أيضاً فيهما — وجاء كذلك بحذف «إنما» وزعم قوم أنه متواتر وليس كذلك ، ولكنه مجمع على صحته وهو أحد القواعد الثلاثة التي ترد اليها الأحكام عند الإمام أحمد وهذا هو معنى : كونه ثلث العلم عنده، إذا عني بالتواتر، التواتر المعنوي — نعم تواتر عن يحيى بن سعيد، فقد حكى محمد بن علي بن سعيد النقاش الحافظ أنه رواه عن يحيى مائتان وخمسون نفسا .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٣ .

(٢) العقيدة الاسلامية : ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٣) أخرجه البخاري : ٢٠٣/١٣، فتح الباري، ومسلم : ١٥/٦، أبو داود رقم ٢٦٢٥، والنسائي : ١٨٧/٢ والطيالسي: ص ١٠٩ ، وأحمد : ٩٤/١ ، وطرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة : ١٤١/١ — ١٤٤، للشيخ ناصر الدين .

آية براءة ومعنى الآية واضح : الأحبار : جمع حبر بالفتح والكسر وهم علماء اليهود ، والرهبان : جمع راهب، وهم علماء النصارى [1] .

أما كيف اتخذهم اليهود والنصارى أربابا فيفسره حديث عدي بن حاتم قال : (أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة التوبة : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله﴾ الآية ، فقال : أما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكن كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه) رواه أحمد والترمذي وحسنه .

أقول وبالله التوفيق : إذا قيل في الحديث رواه أحمد، فالذي يتبادر إلى الذهن أنه في المسند وليس هو فيه كما نص على ذلك غير واحد ممن تعرضوا لهذا الحديث، والسيوطي في الدر المنثور لم يعزه إليه مع أنه عزاه لمن هو دون أحمد [2] .

وللحديث طريق واحد فقد أخرجه الترمذي [3] وابن جرير عن غطيف بن أعين، وغطيف ضعيف، وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين وليس بالمعروف في الحديث وعلى أية حال الحديث له شاهد موقوف من حديث حذيفة عن ابن جرير بنحوه وربما تقوى به .

وجاء في التقريب غطيف بن أعين الشيباني الجزري، ويقال بالضاد المعجمة، ضعيف من السابعة، وقال في ترجمته في التهذيب : روى له الترمذي حديثاً واحداً وقال : ليس بمعروف في الحديث .

---

(١) العقدة الاسلامية : ص ١٤٤ .

(٢) الدر المنثور : ٢٣٠/٣ .

(٣) الترمذي : ٤٨٢/٨ .

أقول وبالله التوفيق : الحديث الذي روى له الترمذي هو هذا الذي تكلمت عليه وبينت ما فيه [1] .

وفي هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله وتأثير مايقوله الاسلاف على ما في الكتاب والسنة المطهرة فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدي به في القول ويستن بسننه من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه هو : كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أربابا من دون الله للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل أطاعوهم وحرموا ما حرموا وأحلوا ما أحلوا، وهذا هو : صنيع المقلدين من هذه الأمة وهو أشبه به .

قال السدي : استنصحوا الرجال ونبذوا كلام الله وراء ظهورهم، ولهذا قال : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلٰها واحدا﴾ أي : الذي إذا حرم الشيء فهو حرام [2] وإذا أحله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما نهى عنه نبذ .

وقال الألوسي في تفسيره: الأكثرون من المفسرين قالوا : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم بل المراد أنهم أطاعاعوهم في أوامرهم ونواهيهم، والآية تقرر أن الشرك بالله يتحقق بمجرد اعطاء حق التشريع لغير الله من عباده ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بالألوهية ولا تقديم الشعائر التعبدية له ، ومن ثم لا تسوي الآية في الوصف بالشرك بين اليهود الذين قبلوا التشريع [3] من أحبارهم واطاعوهم وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح .

ولقد واجه القرآن اليهود بأنهم يقولون : «عزير بن الله» وواجه

---

(١) تحفة الاحوذي : ٤٩٣/٨ .

(٢) في ظلال القرآن : ٥٥/١٠ .

(٣) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد : ص ٥٢٧ ص/٢ .

النصارى بأنهم يقولون : «المسيح بن الله» فلم يعترضوا على هذه التهمة الخطيرة ولم يكذبوا أنهم يدعون هذه الدعوى الكاذبة التي لا تصدر عن إيمان فحق عليهم أن يدمغهم بأنهم لا يدينون دين الحق ولا يؤمنون بالله فدين الحق هو التوحيد والإيمان بالله يقتضي تنزيهه عن مشابهة البشر وعن اتخاذه الصاحبة والولد، فالبشر إنما يتخذون الأبناء لحاجتهم إلى الأمتداد في ابنائهم وإلى العون في كبرهم، والله سبحانه وتعالى هو الغني القوي الخالق الباقي الذي خلق كل شيء : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ .

وأما معنى الحديث الذي تقدم : «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك» . لما كان المرائي قاصداً بعمله الله تعالى وغيره كان قد جعل الله تعالى شريكا فإذا كان كذلك فالله تعالى هو الغني على الإطلاق والشركاء بل جميع الخلق فقراء إليه بكل اعتبار فلا يليق بكرمه وغناه التام أن يقبل العمل الذي جعل له فيه شريك فإن كماله تبارك وتعالى وكرمه وغناه يوجب أن لا يقبل ذلك، ولا يلزم من اسم التفضيل إثبات غنى للشركاء[1] ، فقد تقع المفاضلة بين الشيئين وإن كان أحدهما لا فضل فيه كقوله تعالى : ﴿آالله خير أما يشركون﴾[2] وقوله تعالى : ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾[3] وقوله تعالى في الحديث القدسي : « من عمل عملا أشرك فيه غيري ». أي: من قصد بذلك العمل الذي يعمله لوجهي غيري من المخلوقين «تركته وشركه».

وفي رواية عند ابن ماجه وغيره : «فأنا منه بريء وهو للذي أشرك» .

قال الطيبي : الضمير المنصوب في تركته يجوز أن يرجع إلى العمل والمراد من الشرك الشريك ، قال ابن رجب : واعلم أن العمل لغير الله أقسام :

---

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة النمل : الآية ٦٠ .

(٣) سورة الفرقان : الآية ٢٤ .

فتارة يكون رياء فلا يراد به سوى مراءات الناس المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم كما قال تعالى : ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يرآءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾[1] .

وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها فإن الأخلاص فيها عزيز .

وهذا العمل لا يشك مسلم في أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة ، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه كالحديث الذي قدمت وحديث شداد بن أوس . من صلى يرائي فقد أشرك وان الله عز وجل يقول : «أنا خير قسيم لمن أشرك بي شيئاً، فإن جده وعمله قليلهُ وكثيره لشريكه الذي أشرك به وأنا عنه غني »[2] .

أقول وبالله التوفيق : الأحاديث كثيرة وكذلك نصوص القرآن التي تنص على أن الشرك محبط للأعمال فلا نطيل بذكر ذلك كله .

والآن نبدأ في القسم الأخير وهو الثالث من هذه الأقسام التي سبق أن التزمت تبيينها في هذا البحث وهو : توحيد الأسماء والصفات .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٤٢ .

(٢) رواه أحمد .

توحيد الأسماء والصفات

قال الله عز وجل : ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿قل أهو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد﴾ [3] .

قال الدكتور كمال : هذه الآيات تقدم مفاهيم عن الله تبارك وتعالى تزكوا بها نفس المؤمن ويستقيم إيمانه أنها تلك[4] : لله الاسماء الحسنى جاء ذلك في أربع سور من كتاب الله عز وجل : ﴿ولله الأسماء الحسنى، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى﴾ وذلك اخبار لما له سبحانه وتعالى من أسماء على الجملة دون التفصيل وقد وصفها بالحسنى تأنيث الأحسن أي : التي هي : أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول .

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال : (قال رسول الله ﷺ : «ان لله تسعة وتسعين اسما ـ مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة أنه وتر يحب الوتر» [5] . وهذا لا يعني أن لا يكون له اسماء أخرى غيرها .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٨٠ .

(٢) سورة الشورى : الآية ١١ .

(٣) سورة الاخلاص : الآية ١ .

(٤) العقيدة الاسلامية : ص ١٤١ .

(٥) البخاري : ٩/٩٦، الفجالة .

يقول ابن كثير وابن القيم : ان الاسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تحد بعدد فان لله تعالى اسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها مالك مقرب ولا نبي مرسل كما جاء في الحديث : «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك» . فجعل الأسماء ثلاثة أقسام : قسم سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه، وقسم أنزله في كتابه فتعرف به إلى عباده، وقسم استأثر به في علم الغيب فلم يطلع عليه أحدا من خلقه، ومن هذا قول النبي ﷺ : «فَيُفْتَحُ على من محامده بما لا أحسن الآن» [1] . ومنها قوله ﷺ : «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» .

ودعاء الله لا يكون إلا بتلك الأسماء ودعاؤه بها مرتبتان :

أحدهما : ثناء وعبادة ، وثانيهما : دعاء طلب ومسألة . فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها دون غيرها فأسماؤه سبحانه وتعالى توقيفية على ما جاء في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ [2] وقد نص القرآن الكريم على أن من الناس من يلحد في اسائه تعالى فيميلون بها وينحرفون بحقائقها عن الحق الثابت .

والإلحاد في اسمائه تعالى أنواع :

أحدهما : تسميتهم الأصنام بها كتسميتهم اللات من الالهية ، والعزى من العزيز .[3]

والثاني : تسميته تعالى بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا .

والثالث : وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول اليهود أنه فقير .

---

(١) رواه أحمد والحاكم .

(٢) بدائع الفوائد : ٦٤/١ .

(٣) العقيدة الاسلامية : ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

والرابع : تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول : أنها الفاظ مجردة، لاتتضمن صفات ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع ـ والبصير، والحي ويوقلون : لا حياة له ولا سمع ولا بصر .

خامساً : تشبيه صفاته بصفات المخلوقين، تعالى الله عما يقولو المشركون علوا كبيرا، فهم اذن يلحدون في اسمائه تعالى بالتغير أو بالزيادة أو بالنقصان، والأمر بترك الملحدين معناه : الوعيد كقوله تعالى : ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾ (١)وقوله : ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾(٢)

وهذا أولى لقوله : ﴿سيجزون ما كانوا يعملون﴾ (٣) . والقرآن الكريم حين يُعرف بالله عز وجل يتخذ اسلوبا مشرقا لا غموض فيه ولا التواء يقوم على تقديس الله بأوصافه وأفعاله .

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه : أن المشركين قالوا : يامحمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى : ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد﴾. ليس كمثله شيء (٤) فلا يشبه له ولا ند ولا نظير، فيجب الإيمان بكل صفة وصف الله بها نفسه على الحقيقة وعدم التعرض لها بشيء من التكيف أو التمثيل أو التشبيه مع الاعتقاد بأنه سبحانه منزه عن مشابهة المخلوقات ومن صفاته التي انفرد بها سبحانه : الأول ، والآخر، قال تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ (٥).

---

(١) سورة المدثر : الآية ١١ .

(٢) سورة الحجر الآية ٣ .

(٣) سورة الاعراف : الآية ١٨٠ .

(٤) مسند الامام أحمد .

(٥) سورة الاخلاص : الآية

وقال[1] تعالى : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾[2].

وقال جل ذكره : ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام﴾[3] . فالأولية دالة على أزليته وأنه لا شيء قبله، والأخرية دالة على أبديته وأنه لا شيء بعده والظاهرية دالة على عظمته وأنه لا شيء فوقه، والباطنية دالة على معيته وأنه لا شيء دونه أحاطت أولويته وآخريته بالزمان والمكان فلا أول لوجوده إذ لم يسبقه عدم كما لا آخر لوجوده فلا يلحقه سبحانه — فناء ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بالمكان كله فهو سبحانه محيط بكل شيء ظاهر وباطن كما أنه محيط بالأوائل والأواخر .

وتدل الآيتان الأخيرتان على أنه سبحانه وتعالى الدائم الباقي الذي يموت الخلائق ولا يموت فكل الذوات فانية زائلة إلا ذاته تعالى وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «اصدق كلمة قالها لبيد الا كل شيء ما خلا الله باطل» .

أقول وبالله التوفيق بعد هذا نعود إلى الآيات المتقدمة فنقول : لماذا جاءت هذه الأسماء الأربعة متعاطفة والأصل في ذكر صفات الله الذاتية تجريدها من العطف كما في الكتاب العزيز، العليم، السميع، البصير، الغفور، الرحيم .

فيجيب عن هذا ابن القيم[4] فيقول : أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المتعاطفات أيذانا بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها لأن في العطف مزيد تقرير وتوكيد لا يحصل بدونه، يدرأ به توهم الإنكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد ، فقطع هذا الوهم بحرف

---

(١) العقائد الاسلامية : ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٣ .

(٣) سورة الرحمن : الآية ٢٦ — ٢٧ .

(٤) بدائع الفوائد : ١٩/١ .

العطف الدال على أن الوصف بالأولية هو الوصف بالأخروية فكأنه قيل هو الأول وهو الأخير وهو الظاهر وهو الباطن لا سواه .

ولما كانت هذه المخلوقات محدثة ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها (١) ، بل لابد لها من موجد، عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى ولما كان كمال الألوهية يقتضي عدم احتياج الاله إلى غيره، بل أن من صفاته قيامه بنفسه، عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته وغير محتاج إلى من يوجده .

وإذا وضعت النقطتين السابقتين إلى جانب هذا الكلام اتضح لك هذا المقام، والعقل البشري أقصر من أن يتورط في أكثر من ذلك.

وبهذه الكلمة نكون قد أتيت على الأقسام الثلاثة الذي سبق أن التزمت ببيانها عندما عنت في الموضوع أرجو أن أكون قد تجنبت التطويل الممل والتقصير المخل والله حسبي ونعم الوكيل .

ونكون أيضاً قد بينا الجانب الأول من الفصل الثاني في إنكار الوحدانية وعبادة الأصنام، وأن التوحيد حل محل هذا ، وندرك أن عقيدة التوحيد هي الباقية وغيرها يذهب جفاء فلا يمكث في الأرض وهي كذلك العقيدة التي نزلت تامة متكاملة .

والشرك طاريء على أهل الأرض عندما طال بهم الأمد، وعبدوا يغوث ويعوق ونسرا وبعد ذلك جاءت العقيدة السماوية لتحل محل الأوثان وتزيل الباطل والأوهام ، وكان هؤلاء الأصنام قد أضلوا كثيرا ، قال تعالى : ﴿ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا﴾ . ولما جاءت هذه العقيدة السمحة كانت بشارة لأهل الأرض لأن من حقق التوحيد دخل الجنة .

---

(١) العقائد الاسلامية : ص ٥٦ ، ٥٧ .

قال تعالى : ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ [1] . ومناسبة هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين السابقين إلى الجنات بصفات أعظمها الثناء عليهم بأنهم بربهم لا يشركون أي : شيئاً من الشرك في وقت من الأوقات فان الإيمان النافع مطلقا لا يوجد إلا بترك الشرك مطلقا .

ولما كان المؤمن قد يعرض له ما يقدح في إيمانه بشرك جلي أو خفي نفى [2] عنهم ذلك ومن كان كذلك فقد بلغ من تحقيق التوحيد النهاية وفاز بأعظم التجارة ودخل الجنة بلا حساب ولا عقاب .

قال ابن كثير [3] : «والذين هم بربهم لا يشركون» أي : لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه لا نظير له ولا كفؤ له، ويعلم أن كل شيء إنما يصدر عن قضاء الله وقدره فالشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن امه رفعت الأقلام وجفت الصحف .

وهذا يبين من قوله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل قرية رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله، ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [4] .

وقال عز وجل : ﴿ان تحرص على هواهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين﴾ [5] .

---

(١) سورة المؤمنين : الآية ٦١ .

(٢) كتاب التوحيد، تفسير العزيز الحميد : ص ١٠١ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٢٤٨/٣ ط عيسى البابي الحلبي وأولاده .

(٤) سورة النحل : الآية ٣٦ .

(٥) سورة النحل : الآية ٣٧ .

قال ابو بكر محمد بن الحسن الأجري بعد سرد الآيات : كل هذا يبين لكم الرب عز وجل به أن الأنبياء إنما بعثوا مبشرين ومنذرين وحجة الله على الخلق فمن يشأ له الإيمان آمن ومن لم يشأ الله له الإيمان لم يؤمن قد فرغ الله عز وجل من كل شيء قد كتب الطاعة لقوم وكتب المعصية على قوم ويرحم أقواما بعد معصيتهم إياه فيتوب عليهم وقوم لا يرحمهم ولا يتوب عليهم لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

قال ابن تيمية : وإذا عرفت حكمة الرب وعدله تبين أنه إنما يرسل الرسل الذين اصطفاهم لرسالته واختارهم لها الاقامة الحجة على الناس (٢) كما قال : ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس﴾ وكما قال لموسى عليه السلام : ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾ وإنه بلغ الرسالة وقام بالواجب وصبر على تكذيب المكذبين وأذاهم كما قضت به السنة في الرسل إلى سائر ما أخبر به من أحوال الرسل .

والرسل صادقون مصدقون يخبرون بالحق . ويأمرون بالعدل ويدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

أقول وبالله التوفيق : الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم قاموا بالتبليغ على أتم وجه وأكمله فهم مأمورون بالتبليغ والهداية التي هي هداية : ارشاد وتوجيه فقط . كما قال تعالى : ﴿انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (٣).

قال ابن القيم : جميع المنتسبين إلى العلم من أصحاب مالك وأحمد والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم يقطعون بأن الله يعذب بعض أهل الذنوب بالنار ويعفو عن بعضهم .

---

(١) كتاب الشريعة للإجري : ص ١٦٧ .

(٢) كتاب : النبوات لابن تيمية ص ٩٩، ط ١٣٤٦ هـ .

(٣) سورة القصص آية ٥٤

قال الجويني [1] : اعلم وفقك الله تعالى لمرضاته أن كتاب الله العزيز اشتمل على الآيات الدالة على تفرده سبحانه وتعالى بهداية الخلق واضلالهم والطبع على قلوب الكفرة منهم ، وهي نصوص لابطال مذاهب مخالفي أهل الحق، ونحن نذكر غرضنا من آيات الهدي والضلال ثم نتبعها بالآيات المحتوية على ذكر الختم والطبع فمما يعظم موقعه عليهم قوله تعالى : ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ [2] .

وقوله تعالى : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء﴾ [3] .

وقال أيضاً : ﴿من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ [4] .

الهدي في هذه الآيات لا يتجه حمله إلا على خلق الإيمان [5]، وكذلك لا يتجه حمل الأضلال على غير خلق الضلال، ولسنا ننكر ورود لفظ الهداية في كتاب الله عز وجل على غير المعنى الذي رمناه، فقد يرد والمراد به الدعوة قال تعالى : ﴿وانك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [6] وقد ترد الهداية المراد بها الارشاد للمؤمنين إلى مسالك الجنان والطريق المفضية اليها يوم القيامة .

---

(١) كتاب :الارشاد إلى قواطع الادلة في أصول الاعتقاد للجويني ص ٣١٠ .

(٢) سورة يونس : الآية ٢٥ .

(٣) سورة الأنعام آية ١٢٤ .

(٤) سورة الانعام : الآية ١٢٥ .

(٥) كتاب الارشاد للجويني : ص ٢١١ ـــ ٢١٤ .

(٦) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

قال تعالى : ﴿فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم﴾ (١) فذكر الله تعالى المجاهدين في سبيله وعنى بهم المهاجرين والأنصار ثم قال : ﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾ فينبغي حمل الآية على ما ذكرناه .

وقال تعالى في الكفار : ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ (٢) ، معناه : فاسلكوا بهم ، ومعنى قوله تعالى : ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ (٣) أي : على ما دعوا إليه من الهدى .

يقول الإمام الجويني : إنما أشرنا إلى انقسام معنى الهدى والضلال ونحيطوا علما بأننا لا ننكر ورود الهدى والضلال على غير معنى الخلق ولكنا خصصنا بالآي التي صدرنا الفصل بها ولا سبيل إلى حملها على الدعوة فأنه تعالى فصل بين الدعوة والهداية فقال : ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ فخصص الهداية وعمم الدعوة وهذا مقتضى ما استدللت به من الآيات ولا وجه لحملها على الإرشاد إلى طريق الجنان فإن الله تعالى علق الهداية بمشيئته وإرادته واختياره، وكل من يستوجب الجنان فحتم على الله عند المعتزلة أن يدخله الجنة وقوله تعالى : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ (٤) فصرح بأحكام الدنيا وشرح الصدور وحرجها وذكر الإسلام من أصدق الآيات على ما قلته .

أقول وبالله التوفيق : لا يجب على الله سبحانه وتعالى شيء إلا ما أوجب على نفسه تفضلاً منه كما جاء في الحديث الصحيح : «ما حق الله على العبيد وما حق العبيد على الله» فذلك حق أوجبه على نفسه .

---

(١) سورة محمد : الآية ٤ .

(٢) سورة الصافات : الآية ٢٣ .

(٣) سورة فصلت : الآية ١٧ .

(٤) سورة الأنعام: الآية ١٢٥ .

وأمــا آيــات الطبــع والختم فمنها قولــه تعــالى : ﴿ختم الله على قلـوبهم﴾ . وقـال جل ذكـره : ﴿بـل طبـع الله عليها بكفرهـم﴾ [1]. وقـال أيضا : ﴿وجعلنـا على قلـوبهم أكنـة أن يفقهـوه وفي آذانهم وقـرا﴾ [2] وقولـه تعالى : وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ .

يقـول الجويـني : وقـد حارت المعتزلـة في هذه الآيات واضطــربت لها آراؤهـم فذهـبت طائفـة من البـصريين إلى حملهـا على تسميـة الـرب تعــالى : الكفرة بنبذ الكفر والضلال، قالوا: فهذا معنى الطبع ولا خفاء في سقـوط عذا الكـلام، فإن الـرب تعـالى تمدح بهذه الآيات وأنبـأ بها عن اقهاره واقتـداره على ضمائـر العبـاد واسرارهـم وبين أن القلـوب بحكمـه يقـلبها كيـف يشاء وصرح بذلك في قولـه تعـالى : ﴿نقـلب أفئــدتهم وأبصارهــم كما لم يؤمنــوا به أول مرة﴾ [3].

فكيـف جاز حمل هذه الآيات على تسميـة وتقليـب وكيـف يسوغ ذلك للبيب؟ .

قال محمـد الغـزالي : في كتابـه عقيـدة المسلـم في الكــلام على قولــه : ﴿يضل من يشاء﴾ : يقول الخطب في ذلك سهـل كذلك ولـن نذهب في بيانـه إلى أبعد من كلام الله لمن شاء أن يفهم ﴿ولقد يسرنـا القـرآن للذكـر فهـل من مدكر﴾ ونحن نجد أن اطلاق المشيئة[4] في آيات تقيده آيات أخرى يذكر فيها الاختيار الانساني صريحا : أي : ان اضلال الله لشخص معنــاه أن هذا الشخص آثــار الغي على الارشاد فأقره الله على مراده وتم له ما يبغي لنفسه.

---

(1) سورة البقرة : الآية ٧ .

(2) سورة النساء : الآية ١٥ .

(3) سورة الأنعام : الآية ٢٥ .

(4) كتاب عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي : ص ٨٨ ــ ٨٩ .

قال تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

وانظر إلى قيمة التنويه بالاتجاه البشري المعتاد . قال تعالى : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم﴾ (١)، فهل بقي غموض في إطلاق المشيئة لا أن معنى قوله : ﴿يضل من يشاء﴾ لا يَعْدُو قوله : ﴿وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ . وكذلك الحال في ﴿يهدي من يشاء﴾ انظر إلى قيمة الارادة الإنسانية في قول الحق وهو يتكلم عن إرادته : ﴿قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب﴾ ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ .

فهو يهدي اليه من أناب : ﴿ان الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ . اجعل أيها المسلم هذا النور بين يديك وسر في نوره بين شتى السور فلن تجد في دين الله قلقا أو اضطرابا وإنما القلق والاضطراب في عقول الحمقى وقلوب الغافلين .

ثم يفترض فضيلة الشيخ سؤالا فيرد عليه ويقول : مع أنه لا مبرر له فنحن نتبرع بالإجابة عنه .

أما السؤال نفسه فيدور حول حدود الإرادة الدنيا والعليا في الأعمال .

ويقول الشيخ أن سبب إجابته عن هذا السؤال كي يظهر السر في نسبة الهداية والاضلال تارة إلى الله عز وجل وتارة للإنسان، ويضرب لذلك مثلا بما يفعله الفلاح في حقله أنه يلقى البذور ويتعدها بالسقي وعلى الانبات والأثمار فتستطيع أن تسمي الفلاح زارعا وأنت صادق لقيامه بالسبب، وتستطيع أن تسمي الحق سبحانه وتعالى زارعا لقيامه بالعمل : ﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطاما﴾ فما للإنسان

(١) سورة الرعد : الآية ٢٨ .

في سعيه مثل ما للفلاح في زرعه . فازرع عمرك إن شئت خيرا فإن يد القدرة سوف تنميه لك وردا يانعا أو أزرعه إن شئت شرا فإن يد القدرة تنميه شوكا رائعا . ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ (١) .

أقولوبالله التوفيق : لاشك أن الأمر كله لله وأن قلوب العباد يقلبها الرب سبحانه وتعالى كيف يشاء . ولذلك كان من دعائه ﷺ : «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» .(٢)

أخرج ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (٣): حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس قال : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول : «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» (٤) ، قالوا : يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال : نعم . ان القلوب بين اصبعين من أصابع الله يقلبها».

وقال أيضاً : حدثنا معاذ بن معاذ أنبأنا أبو كعب صاحب الحريري أنبأنا شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة : ياأم المؤمنين ما كان دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ فقالت : كان أكثر دعائه : «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ، قلت : يارسول الله ما أكثر دعاءك : «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»؟ قال : «يا أم سلمة ليس من آدمي إلا وقلبه بين اصبيعن من أصابع الله ما شاء أقام وما شاء أزاغ» . (٥)

---

(١) سورة :

(٢) كتاب الايمان لأبي شيبة العبسي : ص ١٧ .

(٣) كتاب الايمان لأبي شيبة العبسي : ص ١٧ .

(٤) الحديث موقوف صحيح كما قال الالباني في تعليقه على كتاب ابن ابي شيبة .

(٥) صحيح الاسناد على شرط مسلم وأخرجه أحمد : ٢٥٧/٣ ، من طرق أخرى عن الأعمش والترمذي : ٢٠/٢ عن أبي معاوية به وقال : حديث حسن، وزاد في آخره كيف يشاء .

قال صاحب كتاب فتح المجيد [1]: العبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه كما قال تعالى : ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ .

وقوله تعالى : ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وما تشاءون إلا أن يشاء الله ان الله كان عليما حكيما﴾ .

وفي هذه الآيات والأحاديث الرد على المعتزلة القدرية الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فهو القاهر لخلقه والمخالف لهم في صفاته وأفعاله .

ان من يتحقق لديه من صفات الله تعالى أنه مخالف للحوادث [2] ومنزه عن مشابهتها تنزيها تاما ثم يلاحظ تأكيد هذه الحقيقة من خلال اسماء الله الحسنى المأثورة التي تعود إلى مخالفته تعالى للحوادث فيتبصر معنى اسماء الله «السلام» و «القدوس» و «الغني» و «الصمد» و «الأول والآخر والباقي» فإنه لا يمكن أن يقع في خطأ تشبيهه جل وعلا بمخلوقاته، أو تشبيه مخلوقاته به .

أقول وبالله التوفيق : كل المسلمون يعلمون أن الله سبحانه وتعالى نفى أن يكون لغيره ملك وذلك في قوله تعالى : ﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾[3] ومن لا يملك هذا المقدار فليس بأهل أن يدعى .

---

(١) كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد : ص ٤١٩ تأليف الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ .

(٢) عقيدة المسلم : ص ٢٠٠، ٢٠١ ط ١، عبد الرحمن حبنكه الميداني .

(٣) سورة سبأ : الآية ٢٣ .

قال ابن تيمية [1] : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونا لله ، ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرحمن كما قال : ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ [2] فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي : منفية يوم القيامة كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه بحمده لا يبدأ الشفاعة أولا ثم يقال له ارفع رأسك واشفع تشفع إلى آخر الحديث المعروف .

ومعنى كلام ابن تيمية : القسط بكسر القاف هو : النصيب من الشيء وذلك في قوله : ﴿وما لهم فيها من شرك﴾ أي : ما لمن تدعونه من الملائكة وغيرهم فيها أي : في السموات ولا في الأرض من شرك .

ومن ليس بمالك ولا شريك للمالك فكيف يدعي من دون الله ، قوله : أو أن يكون عونا لله، ذلك في قوله : ﴿وما له منهم من ظهير﴾ ، أي : مالله ممن تدعونهم عون . وعلى أي حال فجملة الشروط التي لابد وأن يكون أحدها في المدعو اربعة حتى يقدر على إجابة من دعاه .

الأول : الملك ونفاه سبحانه وتعالى بالآية التي قدمت وهي قوله :﴿لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ .

الثاني : إذا لم يكن مالكا يكون شريكا [3] للمالك فنفاه ايضا بقوله : ﴿وما لهم فيهما من شرك﴾ .

الثالث : إذا لم يكن مالكا ولا شريكا للمالك فيكون عونا ووزيرا فنفاه بقوله تعالى : ﴿وما له منهم من ظهير﴾ [4].

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد : ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ ــ ٢٩٠ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٩ .

(٣) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ٢٩٠ .

(٤) سورة سبأ : الآية ٢٣ .

والرابع : إذا لم يكن مالكا ولا شريكا ولا عونا فيكون شفيعا فنفي سبحانه الشفاعة عنده إلا بإذنه فهو الذي يأذن للشافع ابتداء فيشفع .

فبنفي هذه الأمور بطلت دعوة غير الله إذ ليس عند غيره من النفع والضر ما يوجب قصده بشيء من العبادة كما قال تعالى : ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾[1] وقال جل ذكره : ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا﴾ [2]

وهذه الآيات المعنى المراد من إيرادي لها بين منها نصا ومعنى، وأرجو أن أكون قد أعطيت عرضاً كافياً لهذا الموضوع الآنف الذكر والذي بينت فيه إنفراد الله بصفاته وأفعاله ومشيئته وأن العبد أضعف من أن يكون مماثلا أو شريكا أو معينا أو شفيعا إلا بأذنه تعالى الله عن الاعتقادات الفاسدة علوا كبيرا .

ونود أن نبين هنا أن التكاليف علمية وعملية كما قال الشيخ محمود شلتوت حيث قال : للإنسان قوتان أحدهما : نظرية وكمالها في معرفة الحقائق على ما هي عليه ، والأخرى : عملية وكمالها في القيام بما ينبغي من الشئون في الحياة، وقد قرر الإسلام هذا المبدأ أساسا لسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة كما جاءت تكاليفه نوعين منها ما يطلب علما ومنها ما يطلب عملا ونرى ذلك واضحا جليا في هذه الكثرة من الآيات القرآنية التي تجمع بين الإيمان والعمل وتربط بينهما النجاة والسعادة : ﴿من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا﴾ ﴿والعصر ان الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ .

---

(١) سورة يس : الآيات (٧٥ ــ ٧٦) .

(٢) سورة لقمان : الآية ٢ .

وقد اصطلح العلماء على تسمية التكاليف التي تتطلب علماً «بالعقائد» أو أصول الدين كما اصطلحوا على تسمية التكاليف التي تتطلب عملاً «بالشريعة» أو «الفروع» . ولما كانت الحقائق التي يمكن أن يعملها الإنسان كثيرة وكان أكثرها لا يتصل من قريب بالسعادة التي يقصدها الشارع قضت الحكمة أن يبين للناس ما يجب عليهم أن يؤمنوا به في سبيل الحصول على تلك السعادة وذلك عند التحقيق يرجع إلى الأصول التي اشتركت فيها العقائد السماوية جميعها من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

أقول وبالله التوفيق : هذه الأمور اتفقت عليها الشرائع السموائية كلها وحددها الشارع وطلب من الناس الإيمان بها فلا يطلب منه أن يقوم بعمل ما قبلها أي : قبل الإيمان بها والإيمان كما هو معروف هو : الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل .

يقول محمود شلتوت : ومن الواضح أن هذا الإيمان لا يحصله كل ما يسمى دليلا وإنما يحصله الدليل القاطع الذي لا تعتريه شبهة .

وبهذه النبذة ندرك أن العقيدة الإسلامية حلت محل الكفر والشرك بالله وأن الكتب المنزلة بينت ما يجب بيانه وبلغت الرسل الأوامر والنواهي على أكمل وجه . كما قال ﷺ في حجة الوداع آخر حجة حجها : «اللهم اشهد هل بلغت»، وقد شهد الله له بالتبليغ في قوله : ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ والشرائع متفقة كما قدمت على ما يتعلق بالعقائد .

ونلاحظ هنا أن الذين وقع بينهم بعض الخلافات سواء في اسماء الله أو صفاته أو أفعاله متفقون أيضاً على تنزيه الله وإن إختلفت الأفهام فالمقصد واحد وهو : تقديسه تعالى وتنزيهه عن النقائص فمن أنكر بعض الصفات أو الأسماء فذلك فراراً من التشبيه ومن أثبتها فراراً من التعطيل . وإن كان الصواب إثبات ما أثبته الله لنفسه ، ونفي ما نفاه عنها .

وهنا ننهي هذه الكلمة بعد أن بينا كيف حلت العقيدة محل الشرك .

ونبدأ بالفقرة الثانية للنفي فيها ما نفاه الله في كتابه العزيز مما اتخذه الكفار من تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم افتراء عليه سبحانه وتعالى : ﴿ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب﴾ وأول هذه التشريعات الشيطانية التي جاءوا بها من وحيه ما جعلها الله سبحانه وتعالى وما أمر بها ولا أقرها هي : البحيرة .

باب البحيرة والسائبة والوصيلة والحام

البحـــيرة

قال الـراغب الأصفهـاني [1] في بحر أصل البحـر كل مكـــان واسع جامع للماء الكثير .

هذا هو الأصل ، ثم أعـتبر تارة سعتـه المعاينـة، فيقـــال : بحرت كذا أو سعته سعـة البحـر تشبيها به ومنـه بحرت البعير شققت أذنه شقا واسعا ومنه سميت البحيرة قال تعـالي : ﴿مـا جعـل الله من بحيرة﴾ وذلك ما كانـوا يجعلونـه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطـن شقـوا أذنها فيسيبوهـا فلا تركـب ولا يحمـل عليها وسمّوا كل متوسع في شيء بحرا حتى قالوا فرسا بحرا باعتبار سعة جريه .

وللمتـوسع في علمـه بحر وقـد تبحـر أي : توسع في كذا، والتبحـــر في العلـم التـوسع، واعـتبر من البحـر تارة ملوحتـه فقيـل ماء بحراني، أي : ملـح . وقال بعضهـم : البحـر يقال في الأصل للماء الملح دون العـذب ، وقولـه تعـالى : ﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾إنما سمي العذب بحرا لكونه مع الملح كما يقال للشمس والقمر ،قمران وقيل للسحاب الذي كثر ماؤه : بنات البحـر ، وقولـه تعـالى : ﴿ظهر الفساد في البر والبحـر﴾ قيـل اردا في البـوادي والاريـاف لا فيمـا بين الماء ، وقـولهم لقيتـه : صحـــــرة، بحرة، أي : ظاهرا حيث لا شيء يستره .

أقول وبالله التوفيـق : أكثر ما رأيت من المفسرين وكـتب اللغـة حاصل بينهم الاتفـاق على هذه المادة أن أصلهـــا التـــوسع وتستعمـــل في أشيـــاء من

---

(١) مفردات الراغب في غريب القرآن : ص ٣٧ ط/ الأخيرة .

ضمنها : شق اذن الدابة وهو : المطلب عندي بإيرادي هذه المادة[١] .

قال ابو حيان : البحيرة فعيلة بمعنى مفعولة كالنطيحة بمعنى المنطوحة قال أبو عبيدة : هي الناقة إذا انتجت خمسة أبطن في آخرها ذكر شقوا أذنها وخلوا شبيلها، لا تركب ولا تحلب ولا تطرد عن ماء ولا مرعى ، وروى نحوه عن ابن عباس ، إلا أنه لم يذكر عنه آخرها ذكر .

وقال الشوكاني [٢] : والبحيرة فعيلة بمعنى مفعولة فعرفها بما عرف به البحر وغيره .

وبهذا القول ايضا قال ابن جرير الطبري [٣] وفي الصحيح عن سعيد بن المسيب : البحيرة هي : التي يمنع درها فلا يحلبها أحد من الناس وهكذا قال القرطبي [٤] في كلامه على هذه الآية فنقل كلام الطبري بالحرف وأورد ما رواه سعيد بن المسيب في معنى البمحيرة إلا أن القرطبي قال : وقيل : البحيرة لغة هي : الناقة مشقوقة الأذن يقال : بحرت اذن الناقة أي : شققتها. شقا واسعا، وهذا في رأي راجع إلى أصل المادة كما بينت آنفا .

قال الشاعر :

محرمة لا يطعم الناس لحمها
ولا نحن في شيء كذاك البحائر

أقول وبالله التوفيق : ظاهر كلام القرطبي أنه جعل هذه الفعلة التي تفعل للناقة هي : أصل هذه المادة وليس كذلك بل الأصل هو : كما يبين الراغب

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان : ٢٨/٤ ــ ٢٩ .

(٢) تفسير الشوكاني المسمى فتح القدير : ٧٧/٢ .

(٣) تفسير ابن جرير الطبري : ٣٣٧/٦ ط/ الثانية .

(٤) تفسير القرطبي : ٣٣٥/٦ .

في مفرداته . وأبو حيان في البحر ، وابن جرير الطبري في تفسيره [1] وقد تقدم هذا كله قبل قليل . وقال في تفسيره : كانوا إذا انتجت الناقة عشرة بطون شقوا أذنها نصفين طولا فهي مبحورة وذلك كله ضلال .

أقول وبالله التوفيق : إذا كان وقع بعض من الخلاف الطفيف في أصل هذه المادة ومشتقاتها فكذلك وقع الخلاف في مفردات هذه الآية الكريمة من سورة «المائدة» وأنا اتتبع ذلك وأبين الراجح فيه عندي بعد الإطلاع على الأقوال وأدلتها من ذلك قوله : ﴿ما جعل الله﴾ جعل هنا أكثر المتعرضين للآية على أنها بمعنى : سمى.

قال الطبري : جعل هنا بمعنى : سمى، كما قال تعالى : ﴿إنا جعلناه قرآنا عربيا﴾، أي : سميناه والمعنى في هذه الآية : ما سمى الله ولا سن ذلك حكما ولا تعبد به شرعا بيد أنه قضى به علما وأوجده بقدرته خلقا فإن الله خالق كل شيء من خير وشر ونفع وضر وطاعة ومعصية وهو قول القرطبي والشوكاني .

قال عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره : وجعل في هذه الآية لا يتجه أن يكون بمعنى خلق ولا بمعنى صير وإنما هي بمعنى : ما سن ولا شرع .

قال جار الله أبو محمود في كتابه الكشاف [2] : ما جعل الله بمعنى : ما شرع ذلك ولا أمر بالتبحير والتسبيب وغير ذلك ولكنهم بتحريمهم ما حرموا افتروا على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره [3] : فأما البحيرة فقال علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما هي : الناقة إذا انتجت خمسة أبطن .

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن : ٤٩٢/١ لعبد الرحمن الثعالبي .

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : ٦٨٥/١ .

(٣) تفسير ابن كثير : ١٠٧/١ .

قلت : قد تواترت أخبار المفسرين في تفاسيرهم على هذا المعنى . قال أبو حيان قال أبو عبيدة [1] هي : الناقة إذا انتجت خمسة أبطن ، وقال ابن جرير[2] : البحيرة وهي : التي يمنع درها فلا يحبلها احد من الناس .

أقول وبالله التوفيق : الظاهر أن العرب كانوا يختلفون في الطريق التي كانوا يفعلون في هذه العادة السيئة التي جعلوها عبادة كالنذر في الإسلام والعتق فيه قال ابن جرير : وأما كيفية عمل القوم في ذلك فلا علم لنا به وقد وردت الأخبار بوصف عملهم ذلك على ما قد حكينا وغير ضائر الجهل بذلك إذا كان المراد من علمه المحتاج إليه موصلا إلى حقيقته وهو أن القوم كانوا يحرمون من أنعامهم على أنفسهم ما لم يحرمه الله اتباعا منهم خطوات الشيطان فوبخهم الله تعالى بذلك وأخبرهم أن كل ذلك حلال .

فالحرام عندنا من كل شيء ما حرم الله تعالى على لسان نبيه ﷺ والحلال كذلك .

وقد اختلفت أقوال أهل العلم في المعنى «بالذين كفروا» في هذا الموضوع، والمراد بقوله : ﴿وأكثرهم لا يعقلون﴾ .

قال ابن جرير [3] : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال ان المعنيين بقوله : ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ الذين بحروا البحائر وسيبوا السوائب ووصلوا الوصائل، وحموا الحامي مثل عمرو بن لحي وأشكاله ممن سنوا لأهل الشرك السنن الرديئة وغيروا دين الله دين الحق . وأضافوا إليه تعالى أنه هو الذي حرم ما حرموا وأحل ما أحلوا افتراء على الله الكذب وهم يعلمون واختلاقا عليه الافك وهم

---

(١) تفسير البحر المحيط لابي حيان : ٢٨/٤ ــ ٢٩ .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري : ٦٥٣٣ .

(٣) المصدر السابق : ٩٢/٧ .

يعلمون فكذبهم الله تعالى في قيلهم ذلك [1] .

أقول وبالله التوفيق : إذا كنت بينت جانبا من العادات الجاهلية التي اتخذها الكفار تشريعا يحلون به ما حرم الله، ويحرمون ما أحلّ إفتراء عليه وبالأخص ما يتعلق «بالبحيرة من ذلك» فإن هذه الآية الكـــريمة من سورة المائدة صدرت بذكر السائبة، والوصيلة والحام فينبغي إيضاح ما قام به الكفار من عادات نحوهم فهم مثل البحيرة من ناحيتي الاعتقاد والعادة والان نجمل القول فيهم في هذا المقام حسب تعاريف العلماء .

---

(1) ابن جرير الطبري : ٩٢/٧ .

السائبــة

قال أبو حيان[1] : السائبة فاعلة من ساب إذا جرى على وجهه .

يقال : ساب الماء وسابت الحية . وقيل هي : السبية اسم فاعل بمعنى المفعول نحو قولهم : عشية راضية أي : مرضية . قال أبو عبيدة : كان الرجل إذا قدم من سفرا ونذر أو شكر نعمة سيب بعيرا فكان بمنزلة البحيرة في جميع ما حلوا لها .

وقد قال مجاهد : البحيرة : ما نتجت السائبة ، قال الشافعي [2] : كانوا يبحرون البحائر ويسيبون السوائب ويوصلون الوصيلة ويحمون الحامي على غير معان ، سمعت كثيرا من طوائفهم يحكون فيه فتجتمع حكاياتهم على أن ما حكوا منه عندهم من العلم العام الذي لا يشكون فيه ولا يمكن في مثله الغلط وفيما ذكروا أنهم سمعوا عوامهم يحكون عن عوام من كان قبلهم فكان مما حكوا مجتمعين على حكايته أن قالوا : البحيرة : الناقة تنتج بطونا فيشق مالكها اذنها ويخلي سبيلها ويحلب لبنها في الأبطح ولا يستجيزون الانتفاع بها ثم زاد بعضهم على بعض .

والسائبة : العبد يعتقه الرجل عند الحادث مثل البرء من المرض أو غيره من وجوه الشكر ويقول : قد اعتقتك سائبة ولا ولاء لنا عليك ولا ميراث يرجع منك ليكون أكمل لتبررنا فيك .

وقال في أحكام القرآن : ولما كان العتق لا يقع على البهائم رد رسول الله ﷺ ملك البحيرة والوصيلة والحام إلى ملكه وأثبت العتق وجعل الولاء لمن أعتق .

---

(١) البحر المحيط : لابن حيان : ٢٩/٤ .

(٢) احكام القرآن للشافعي : ص ١٤٣/١ .

والبحر أيضاً : داء يصيب الابل من كثرة شرب الماء، ومنه قول الشاعر :

لا علطنك وسمالا تفارقه

كما يحر بحمى الميسم البحر

قال ابن جرير[1] : بنحو الذي قلنا في البحيرة جاء الخبر عن رسول الله ﷺ وساق بسنده عن أبي الأحوص عن أبيه قال : دخلت على رسول الله ﷺ فقال : «رأيت ابلك الست تنتجها مسلمة آذانها فتأخذ الموسى فتجدعها تقول هذه بحيرة وتشق آذانها تقول : هذه حرام؟ قال : نعم ، قال : فان ساعد الله أشد وموسى الله أحد كل مالك لك حلال لا يحرم عليك منه شيء» .

قال الفخر الرازي : اعلم أنه تعالى لما منع الناس من البحث عن أمور ما كلفوا بالبحث عنها كذلك منعهم عن التزام أمور ما كلفوا التزامها ولما كان الكفار يحرمون على أنفسهم الانتفاع بهذه الحيوانات وإن كانوا في غاية الاحتياج إلى الانتفاع بها . بين الله تعالى أن ذلك باطل فقال: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ .

أقول وبالله التوفيق : قد تكلمت قبل قليل على معنى : ما جعل الله وانها بمعنى : ما شرع ، ونزيد ذلك وضوحا هنا .

قال الفخر الرازي [2] : اعلم أنه يقال فعل، وعمل، وطفق ، وجعل، وانشأ، وأقبل وبعضها اعم من بعض وأكثرها عموما فعل لأنه واقع على أعمال الجوارح وأعمال القلب أما انه واقع على اعمال الجوارح فظاهر وأما انه واقع على اعمال القلب فالدليل عليه قوله تعالى : ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري : ٨٦/٧ ــ ٨٧ .

(٢) كتاب : الأم للشافعي : ١٨١/٦ ط ١ .

شيء نحن ولا آباؤنا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾. وأما عمل فإنه أخص من «فعل» لأنه لا يقع إلا على الجوارح ولا يقع على الهم، والعزم، والقصد، والدليل عليه قوله ﷺ : «نية المؤمن خير من عمله» جعل النية خير من العمل فلو كانت النية عملا لزم كون النية خيرا من نفسها، وأما جعل فله وجوه :[1]

أحدها : الحكم، ومنه قوله تعالى : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا﴾ .

ثانياً : الخلق ومنه قوله تعالى : ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ .

وثالثها : بمعنى التصير ومنه قوله تعالى : ﴿إنا جعلناه قرآناً عربيا﴾ .

إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: ﴿ما جعل الله﴾ أي : ما حكم ولا شرع ولا أمر به ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هنا أمورا :

الأولى : البحيرة : وبينت معناها وحكمها وأنها : الناقة تشق أذنها وتترك للطاغوت وهذا لا يعرف له وجه سوى الحرمة وأنه من أعمال المشركسن التي حرمها الله وحذر منها بالإضافة إلى ذلك التحريم والتشنيع لا معنى لها كما أشار إلى ذلك ابن جرير .

قال ابن حجر في الفتح : والفعل لا يتناول القول حقيقة ويتناوله مجازا .

أقول وبالله التوفيق : قول الفخر الرازي أن فعل تتناول فعل الجوارح والقلب ليس على اطلاقه كما أشرنا له آنفا .

الثاني : من هذه المسائل : السائبة وقد بينتها لغة ومعنى .

---

(١) احكام القرآن للشافعي : ١٤٣/١ .

الوصيلــة

والثالث : الوصيلة وأكثر المفسرين على أنها الشاة تلد ذكرا وانثى قاله الزمخشري[1] : إذا ولدت الشاة انثى فهى لهم وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم وإن ولدت ذكرا وانثى، قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

هذا هو معنى الوصيلة والشائع بين المفسرين بيد أنه روى عن ابن عباس أن الوصيلة في الابل، وقال القرطبي [2]: الوصيلة الشاة إذا تَمَمَت عشرة ابطن .

وقال الراغب الأصفهاني [3] في قول الله عز وجل «ولا وصيلة» هو أن احدهم كان إذا ولدت له شاة ذكرا وانثى قالوا : وصلت أخاها فلا يذبحون أخاها من أجلها .

قال الحافظ ابن كثير[4] : والوصيلة، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هي : الشاة إذا انتجت سبعة ابطن نظروا إلى السابع فإن كان ذكرا وأنثى في بطن واحد استحيوهما وقالوا : وصلته اخته فحرمته علينا . رواه ابن ابي حاتم .

وقال عبد الرازق : انبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب «ولا وصيلة» قال : الوصيلة من الأبل، وكذا روى عن الإمام مالك بن أنس .

أقول وبالله التوفيق : هذه الخلافات لا نجني من تحقيقها كثير فائدة

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل :

(٢) تفسير القرطبي : ٩/٣٣٥ — ٣٣٦ .

(٣) مفردات الراغب في غريب القرآن : ص ٥٢٥ .

(٤) تفسير ابن كثير : ٢/١٠٨ .

لذلك نكتفي بعزو الأقوال فيها إلى اصحابها : والأكثرون كما قدمت على أن الوصيلة من الغنم كما قال الثعالبي في تفسير الجواهر الحسان [1]، فقال : وعلي أن الوصيلة في الغنم جاءت أكثر الروايات .

قال السيد قطب عليه رضوان الله [2] : وعلى اية حال هناك روايات شتى عن تعريف هذه الأنواع من الطقوس لا ترتفع على هذا المستوى من التصوير ولا تزيد الاسباب معقولية على هذه الأسباب وهي كما ترى أوهام من ظلمات الوثنية المخيم، وحين تكون الأوهام هي الحكم لا يكون هناك حد ولا فاصل وسرعان ما تتفرع الطقوس ويضاف اليها وينقص منها بلا ضابط إلا الأهواء والأوهام وهذا هو الذي كان في جاهلية العرب والذي يمكن ان يحدث في كل زمان ومكان حين ينحرف الضمير البشري عن التوحيد المطلق الذي لا منعرجات فيه ولا كلام، والجاهلية فترة من الزمان ولكنها حالة في الوجدان، فأما وجدانية واضحة تجمع كل خيوط المشاعر والأفكار والاتجاهات والنشاط، وإما وثنية في صورة من الصور لا ضابط لها ولا حدود لأن العقل البشري وحده لا يكفي إذا لم يكن الضابط الموزون في الضمير .

فالعقل يتأثر بالهوى كما نشهد في كل حين إذا لم يكن هناك ذلك الضابط الموزون .

إلى أن قال سيد قطب : أما الوصيلة فإن بعض أهل اللغة ذكر أنها الانثى من الغنم إذا ولدت مع الذكر .

أقول وبالله التوفيق : هذا يعزز الأقوال التي سبق ذكرها واتفاقها على أن الوصيلة من الغنم، وأرجو ان يكون هذا كافياً في بيانها وتعريفها ومعناها والله الموفق .

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن : ٤٩٢/١ .

(٢) في ظلال القرآن : ٢٥/٧ ــ ٢٦

الحـــام

أما الحام فهو من الأبل بلا شك وهو أيضاً من الأنعام التي حرمت ظهورها كما قال الفخر الرازي : وهـو قول السدي، وقـال الـراغب [1] : «ولا حام» قيـل : هو الفحـل إذا ضرب عشرة أبطـن .كانوا يقولون : حمى ظهره فلا يركب .[2]

وقـال ابـن كثير في تفسيره [3] : وقـال علي ابـن أبي طلحـة عن ابـن عباس : وأما الحام فالفحل من الابل إذا ولـد ولـده، قالـوا : حمي ظهـره فلا يحملـون عليـه شيئـاً ولا يجزُّون له وبـرا ولا يمنعونـه من ماء ولا حمى وإن كان الحوض لغير صاحبـه، وقـال ابـن وهب سمعت مالكـا يقـول : أمـا الحام فمـن الابـل كان يضرب في الابـل فإذا انـقضى ضرابـه جعلـوا عليـه ريش الطواليس وسيبوه وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية .

وقال سيد قطب : الحام الفحل من الابـل كان يضرب الضراب المعـدود فإذا بلغ ذلك العدد يقال : حمى ظهره فيترك فيسمونه : الحامي .

قال الشاعر :

حماهـا أبـو قابـوس في عز ملكـه كما حمى أولاده الفحـل

وهذا أيضاً قول الطبري والشوكاني وغيرهما من المفسرين .[4]

---

(١) في ظلال القرآن : ٧/ ٢٥ ــ ٢٦ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص ١٢٣ .

(٣) تفسير الحافظ ابن كثير : ١٠٩/٢ .

(٤) تفسير القرطبي : ٦ /٣٣٥ ــ ٣٣٦ .

أقول وبالله التوفيق : بعد أن بينت معنى مفردات هذه الآية من قوله عز وجل : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ يجدر بنا أن نتعرض لمعرفة أول من أتخذ هذه الطريقة الفاسدة الذي تَحَمَّل وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة والعياذ بالله تعالى .

وبعد معرفة ذلك والتأكد منه بما يدل عليه من نصوص محكمة نرجع بعون الله إلى الآية أيضاً لنعرف ماذا أخذ العلماء منها وما الذي استنتجوه من أحكام على ضوء ما نصت عليه تصريحا أو تلويحا .

أما المسألة الأولى التي هي : أو من اتخذ هذه الفعلة الشنيعة فإن العلماء اعطوا ذلك اهتماما لكبر جريمته . فقد روى الإمام البخاري [1] قال : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعيد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد ابن المسيب : قال البحيرة : التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء .

قال : وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب» .

قال ابن كثير [2] ورواه مسلم والنسائي من حديث إبراهيم بن سعد به، ثم قال البخاري وقال لي أبو اليماني أخبرنا شعيب عن الزهري قال : سمعت سعيدا يخبر بهذا وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ نحوه ، ورواه ابن الهاد، عن ابن شهاب عن سعيد عن أبي هريرةرضي الله عنه عن النبي ﷺ .

قال الحاكم : أراد البخاري أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهري كذا حكاه أبو الحجاج المزي في الأطراف

---

(١) صحيح البخاري : ٦ / ٤٦ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١٠٧/٢ .

وسكت ولم ينبه عليه وفيما قاله الحاكم نظر فإن الإمام أحمد وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعيد عن ابن الهاد عن الزهري نفسه والله أعلم .

ثم قال البخاري : حدثنا محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا يونس عن الزهري عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه[1] في النار، وهو أول من سيب السوائب» .

قال ابن كثير : تفرد به البخاري، وقال ابن جرير : حدثنا هناد حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن اسحاق حدثني محمد بن إبراهيم ابن الحارث عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون : «ياأكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل به منك ولا بك منه»[2] فقال أكثم : أتخشى أن يضرني شبهه يارسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لا انك مؤمن وهو كافر أنه أول من غير دين إبراهيم وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي» قال ابن كثير : ثم رواه عن هناد عن عبد عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله .

وقال الإمام أحمد [3] : حدثنا عمرو بن مجمع حدثنا إبراهيم عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ : «ان أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو جزاعة عمرو بن عامر واني رأيته يجر أمعاءه في النار» تفرد به أحمد من هذا الوجه .

---

(١) القصب بوزن قفل : اسم للأمعاء كلها .

(٢) تفسير ابن جرير الطبري : ٣٣٨/٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد .

وقال عبد الرزاق[1] : أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ : «اني لأعرف أول من سيب السوائب وأول من غير دين إبراهيم عليه السلام» قالوا : ومن يارسول الله، قال : «رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرم البانهما ثم شرب البانهما بعد ذلك فلقد رأيته في النار وهما يعضانه بأفواههماويطآنه بأخفافهما»[2].

فعمرو هذا هو : ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل وأدخل الأصنام إلى الحجاز ودعا الرعاء إلى عبادتها والتقرب بها وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها كما ذكره الله تعالى في سورة «الأنعام» قال تعالى : ﴿وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا﴾ .

أقول وبالله التوفيق : هذه النصوص التي أوردت لبيان أول من فعل هذه الفعلة تختلف مراتبها اختلافا كبيرا فبعضها ثابت في الصحيح لا مطعن فيه، والثاني منها ان لم ينهض إلى درجة حديث البخاري فعلى الأقل يقوي بعضها بعضا فتصبح بمجموعها دليلا قاطعا على أن هذا الرجل هو أول من دعا إلى هذه العبادة الوثنية الشنيعة ونضيف هنا إلى ذهن القاريء الكريم أن حديث البخاري في هذا الموضوع والذي تقدم تقريره وجاء فيه [3] : «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب وبحر البحائر» المرفوع منه قوله : «رأيت عمرو بن عامر فقط» كما نص على ذلك ابن حجر في الفتح .

وقد أشار المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير [4] إلى أن

---

(١) مصنف عبد الرزاق : ٢٦/٩ .

(٢) البخاري : ٤٦/٦ .

(٣) فتح الباري : ٢٨٤/٨ .

(٤) فيض القدير : ٩/٤ ط الأولى .

الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وان الإمام أحمد اخرجه في مسنده كذلك .

والحديث أيضاً له طريق أخرى من رواية عائشة في البخاري إلا أن روايتها في صحيح البخاري رأيتها بدون كلمة «في النار» وجميع تفسير الأربعة المذكورة في الآية عن سعيد بن المسيب وقع في رواية الاسماعيلي من طريق يعقوب بن إبراهيم بن سعد عن أبيه بهذا الاسناد إلا انه بعد ايراد المرفوع قال : وقال : سعيد بن المسيب : الوصيلة الناقة إلى آخره ، فأوضح أن التفسير جميعه موقوف وهذا هو المعتمد .

قال ابن حجر : وهكذا أخرجه ابن مردويه من طريق يحيى بن سعيد وعبيد الله بن زياد عن ابن شهاب مفصلا وقوله في المرفوع : «وهو أول من سيب السوائب» زاد في رواية أبي صالح عن أبي هريرة عند مسلم «وبحر البحيرة وغير دين إسماعيل» وروى عبد الرازق عن معمر عن زيد بن أسلم مرسلا [1] «أول من سيب السوائب عمرو بن لحي، وأول من بحر البحائر رجل من بني مدلج جدع اذن ناقته وحرم شرب لبنها» والأول أصح والله أعلم .

أقول وبالله التوفيق : الأثر الذي نحن فيه رواه الطبراني باسنادين .

---

(١) مصنف عبد الرزاق : ٢٦/٩ ط الأولى

الإسناد الأول

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين المصري ثقة وأبوه عبد الله بن عبد الحكم بن أعين الفقيه المصري ثقة مترجم له ــ في التهذيب ــ وشعيب بن الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي المصري ثقة وأبوه الليث بن سعد الإمام الجليل القدر، وابن الهاد هو يزيد بن الهاد منسوبا إلى جده وهو : يزيد بن عبد الله بن اسامة بن الهاد، ثقة .

الإسناد الثاني

يونس هو : يونس بن عبد الأعلى الصدفي «ثقة» وعبد الله يونس الكلاعي «ثقة» من شيوخ البخاري مترجم له في التهذيب، وخبر أبي هريرة هذا من طريق الليث بن سعد عن يزيد بن الهاد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رواه أحمد في المسند رقم ٨٧٧٣ من طرق وأشار اليه البخاري في صحيحه ٤٦/٦ وذكره ابن حجر في الفتح ٢١٤/٨ .

وقد رواه قبل من طريق صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد، ورواه أحمد قبل ذلك منقطعا رقم ٧٦٩٦ من طريق عبد الرزاق عن معمر وعن الزهري عن أبي هريرة وأما مسلم فرواه في صحيحه ١٨٩/١٧ من طريق صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد وذكره ابن كثير : ٢٥٣/٣ في تفسيره وأشار إلى أن ابن الهاد قد ثبت سماعه عن الزهري ولم يبين هو ما اراد أبو الحجاج بما قال ولم يفسر الحافظ في الفتح كلام المزي ولم يتطرق اليه .

وبما قدمته من الكلام على هذه الأثار أرجو أن أكون قد بينت ما فيه الكفاية من النصوص المتعلقة بهذه الفعلة التي ضل فيها المشركون كغيرها من أفعالهم القبيحة الشنيعة وإذا نظرنا قليلا إلى هذه الأفعال التي ظلوا عليها يرجون بها التقرب إلى الباري جل وعلا وفكرنا مليا فلا نجد لها مبررا يحفز على فعلها سوى ما يمليه الشيطان على أوليائه ومن هذه الزاوية ندرك أن الله سبحانه وتعالى لا يعبد إلا بما شرع وأن العبادة لا تنفع إلا إذا وافقت الشرع السماوي فلم يكن الأمر فيها متروكا للرأي، ولا لما يصبوا إليه الإنسان ولا ما يستحسنه فقد يرى حسنا ما ليس بالحسن والنص الشرعي هو الفصل في كل ما يأتي الإنسان وما يدع والتشريع قد تم والوحي انقطع كما هو معروف فلا يتطلع الإنسان إلى غير الموجود إلا لغرض مشبوه والموجود فيه الكفاية التامة .

﴿اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ .

وبعد هذا النص القرآني يتضح أن من زاد أو استزاد فقد ساهم في التشويش على الإسلام وأهله ، نسأل الله العفو والعافية وأن نكون عند أوامره ونواهيه أنه سميع مجيب .

والآن نبدأ في بيان النقطة الثانية التي استنتجها بعض العلماء من هذه الآية الكريمة والتي ذكرت في مطلعها اني سأتعرض لما دلت عليه الآية تصريحا أو تلويحا، ونناقش ما عزى إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه من تعلقه بهذه الآية في منع : الأحباس ورد الأوقاف بل نتتبع نسبة القول إليه لمعرفة حقيقته والله الموفق والهادي إلى أقوم سبيل .

مناقشة استنتاج أبي حنيفة من الآية

أقول وبالله التوفيق : ان الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه [1] تعلق بهذه الآية في منع الاحباس ورد الأوقاف بحجة أن الله تعالى عاب على العرب ما كانت تفعل من تسيب البهائم وحمايتها وحبس أنفاسها عنها وقاس على البحيرة والسائبة، والفرق بين، ولو عمد رجل إلى ضيعة له فقال : هذه تكون حبسا لا يجتنى ثمرها، ولا تزرع أرضها ولا ينتفع منها بنفع لجاز أن يشبه هذا بالبحيرة والسائبة وقد قال علقمة لمن سأله عن هذه الأشياء ما تريد الا شيئاً كان من عمل الجاهلية وقد ذهب وقال نحوه ابن زيد وجمهور العلماء على القول بجواز الاحباس والأوقاف ما عدا أبي حنيفة وأبي يوسف وزفر، وهو قول شريح إلا أن أبا يوسف رجع عن قول ابي حنيفة في ذلك لما حدثه ابن عليه عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر أن عمر استأذن رسول الله ﷺ في أن يتصدق بسهمه مُن خيبر فقال رسول الله ﷺ : «احبس الأصل وسبل الثمرة» وبه يحتج كل من أجاز الاحباس وهو حديث صحيح قاله أبو عمر .

وأيضاً فإن المسألة إجماع من الصحابة وذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وعائشة وفاطمة ، وعمرو بن العاص وابن الزبير وجابرا كلهم وقفوا الأوقاف بمكة والمدينة وهي معروفة مشهورة وروى أن أبا يوسف قال لمالك بحضرة الرشيد : ان الحبس لا يجوز . فقال له مالك : هذه أحباس رسول الله ﷺ بخيبره وفدك، وأحباس أصحابه .

وأما ما احتج به أبو حنيفة من الآية فلا حجة فيه لأن الله سبحانه وتعالى

---

(١) تفسير القرطبي : ٦/٣٣٨ ط/وزارة التعليم والتربية بمصر .

إنما عاب عليهم أن تصرفوا بعقولهم بغير شرع توجه اليهم أو تكليف فرض عليهم في قطع طريق الانتفاع وإذهاب نعمة الله تعالى وإزالة المصلحة التي للعباد في تلك الابل .

وبهذا فارقت هذه الأمور الأحباس والأوقاف ومما احتج به أبو حنيفة وزفر ايضا ما رواه عطاء عن ابن المسيب قال: سألت شريحا عن رجل جعل داره حبسا على الآخر من ولده فقال : لا حبس عن فرائض الله، قالوا : فهذا شريح قاضي عمر وعثمان وعلى الخلفاء الراشدين حكم بذلك [1].

واحتج ايضا بما رواه ابن لهيعة عن أخيه عيسى عن عكرمة عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ بعدما أنزلت سورة «النساء» وأنزل الله فيها الفرائض ينهي عن الحبس .

أقول وبالله التوفيق : الصدقة التي يمضيها المتصدق في حياته على ما أذن الله به على لسان نبيه ﷺ وعمل بها الأئمة الراشدين رضي الله عنهم ليس من الحبس عن فرائض الله ولا حجة في قول يخالف قول الرسول ﷺ سواء كان مصدره شريحا أو غيره . بعد عمل الصحابة الذين هم الحجة على جميع الخلق .

وأما حديث ابن عباس فرواه ابن لهيعة، وهو : رجل اختلط عقله في آخر عمره وأخوه غير معروف فلا حجة فيه، قال ابن القصار : فإن قيل كيف يجوز أن تخرج الأرض بالوقف عن مالكها لا إلى ملك مالك؟

قال الطحاوي : يقال لهم : وما ينكر من هذا وقد اتفقت أنت وخصمك على الأرض يجعلها صاحبها مسجدا للمسلمين ويخلي بينهم وبينها وقد خرجت بذلك من ملك إلى غير مالك ولكن إلى الله تعالى وكذلك السقايات، والجسور، والقناطر، فما ألزمت مخالفك بحجتك عليه

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٣٩/٦ .

يلزمك بهذا كله والله أعلم .

وعتق السائبة كما نص على ذلك القرطبي وعزاه لمالك وأصحابه جائز وهو أن يقول السيد لعبده أنت حر وينوي العتق . أو يقول اعتقتك سائبة فالمشهور من مذهب مالك عند جماعة أصحابه أن ولاءه لجماعة المسلمين وعتقه نافذ هكذا رواه عنه ابن القاسم وابن عبد الحكم واشهب وغيرهم وبه قال ابن وهب ورواه عن مالك قال : لا يعتق أحد سائبة لأن الرسول ﷺ نهى عن بيع الولاء وعن هبته ، قال ابن عبد البر : وهذا عند كل من ذهب مذهبه إنما هو محمول على كراهية عتق السائبة . فإن وقع نفذ وكان الحكم فيه ما ذكرناه [1].

وروى ابن وهب أيضاً وابن القاسم عن مالك أنه قال : أنا اكره عتق السائبة وأنهي عنه . فان وقع نفذ وكان ميراثا لجماعة المسلمين وعقله عليهم .

وقال أصبغ : لابأس بعتق السائبة ابتداء، ذهب إلى المشهور من مذهب مالك، قال ابن نافع لا سائبة اليوم في الإسلام ومن اعتق سائبة كان ولاءه له . وبه قال الشافعي وأبو حنيفة ومال إليه ابن العربي واحتجوا بقوله ﷺ : «من اعتق سائبة فلا ولاء له» وبقوله : «إنما الولاء لمن اعتق» نفي أن يكون الولاء لغير معتق .

واحتجوا ايضا بقوله تعالى : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ . وبحديث : «لا سائبة في الإسلام» ، ولما رواه قيس بن هزيل بن شرحبيل قال رجل لعبد الله اني اعتقت غلاما لي سائبة فماذا ترى فيه؟ فقال عبد الله : ان أهل الإسلام لا يسيبون إنما كانت تسيب أهل الجاهلية أنت وارثه وولي نعمته .

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٤١/٦ .

أقول وبالله التوفيق : بعد أن وقع موضوع الحبس في هذا البحث حيث جر له استنتاج أبي حنيفة من الآية التي نحن في الكلام عليها وبما أني قد قدمت في أول هذا البحث أني سنتعرض لما دلت عليه الآية تصريحا أو تلويحا وما استنتج منها من أحكام وأناقش ذلك وأبدي فيه رأيي وبعد رءوس الأقلام الذي قدمت في أول الكلام على هذه الفقرة ايذانا بأن فيها خلافا يحتاج من الكتاب إدراك حقيقته والوقوف على صحة عزوه لهذا الإمام الجليل مع أن الثابت عند الجمهور هو مشروعية الوقف وحديثه ثابت وصحيح وقول يخالف هذا يحتاج إلى دليل كهذا أو أعلى منه على الأقل لاسيما أن كان من هذا الإمام الجحليل وعندئذ يجب البحث والتحقيق والتنقيح لنعرف مدى صحة عزو هذا القول اليه ومصدره فيه وهذا يطلب مني اطلاعا واسعا وبحثاً كبيراً في المراجع وتتبع الخلافات وسبب الخلاف وبالتالي ثمرته وسوف نسند الأقوال إلى قائلها ونصحح عزوها ونترجم لما يحتاج ترجمة ليكون ذلك أشد تثبيتا وأقوى ثقة بأقواله وأبعد به عن الجهالة والله الموفق والهادي إلى الصواب .

قال تعالى : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ هذه الآية من كتاب الله عز وجل هي التي استنتج منها أبو حنيفة رضي الله عنه منع الاحباس ورد الأوقاف، وقد اختلف الفقهاء في مشروعية الوقف فمنهم من أجازه مطلقا ومنهم من منعه مطلقا وهناك من أجازه في حال ومنعه في أخرى وأنا اتتبع ذلك وأبينه بحول الله فيما يلي :

---

(١) تفسير القرطبي : ٣٤١/٦ .

إختلاف الفقهاء

اختلف الفقهاء في مشروعية الوقف على أقوال ثلاثة وبينتها قريباً، والآن أتتبع الطوائف وبالأخص الحنفية لمعرفة أخبار الوقف عند فقهائهم لنعرف ما يقولونه عن إمامهم أبي حنيفة من نسبة المنع إليه.

أما الطوائف الثلاث: فالأولى رأيها الجواز المطلق على وجه الاستحباب [1]، ذهب الجمهور من الفقهاء الشافعية، والمالكية[2]، والحنابلة[3]، والحنفية[4] إلا رواية عن أبي حنيفة وزفر[5] ذهبوا إلى جواز الوقف في الدور والأرضين بما فيها من البناء والغرس، وفي العبيد، والسلاح والكراع والثياب والمصاحف وغيرها، وقيد البعض الجواز بالسلاح والكراع فقط وأبطله فيما عدا ذلك، وهذا الرأي منقول عن ابن مسعود وعلي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم.

---

(١) الأم للإمام الشافعي: ٢٧٤/١ — ٢٧٥، ومختصر المزني بهامش الأم: ١١٥/١.

(٢) الخرشي على خليل: ٧٨/٧، ومنح الجليل للشيخ عليش: ٣٤/٣.

(٣) المغني لابن قدامة بهامش الشرح الكبير: ٨٥/٦ والشرح الكبير ٨٥/٦.

(٤) المبسوط: ٢٧/١٢ ووقف هلال ص ٦، والاسعاف: ص ٣.

(٥) زفر: هو ابن الهذيل بن قيس أبو الهذيل العنبري البصري من أكابر أصحاب أبي حنيفة وأبرعهم في القياس إمام من أئمة المسلمين وعلم من أعلامهم وهو قاضي البصرة، ولد سنة عشر ومائة وتوفي بالبصرة سنة ثمان وخمسين ومائة أنظر ترجمته في تاج التراجم ص ٢٨، والجواهر المضيئة ٢٤٣/١، وأنظر المحلي لابن حزم: ١٨٥/٩.

الأدلـــة :

استـدل الفقهـاء القائلـون بالجواز مطلقـا بجملـة أدلـة منها أدلـة عامـــة تشمل الوقف وغيره ومنها أدلة خاصة بالوقف .

أولاً : الأدلة العامــة :

استدل الفقهاء على الصدقات عموما ومنها الوقف بما يلي :

الكتـاب : مثـل قولـه تعـــالى : ﴿لـــن تنالـــوا البر حتـــى تنفقـــوا مما تحبون﴾ [1] ووجه الاستدلال أن الصدقات منـدوب اليها والوقـف صدقـة فهـو مندوب اليه .

وعن أنس بن مالك[2] قال : لما نزلت هذه الآية قال أبـو طلحـة[3] : ان ربنـا ليسألنـا فاشهـدك يارسول الله : اني جعـلت ارضي لله، فقـــال رسول الله ﷺ : «اجعلهـا في قرابـــتك، في حسان بن ثابت، وأبي بن كعب»، وقـــال القرطبـي في تفسير هذه الآية : ففـي هذه الآية دليـل على استعمـــال ظاهـــر

(١) سورة آل عمران : الآية «٩٢» .

(٢) انس بن مالك بن النضير الأنصاري الخزرجي أبو حمزة خادم النبي ﷺ قدم المدينة وهـو ابـن عشر وقيل ثمان سنين وتوفي سنة اثنتين وقيل واحد وقيل ثلاث وتسعين وكان آخـر من توفى من الصحابـة بالبصرة انظر ترجمته في الاصابة : ٧١/١ .

والاستيعـاب : ٧١/١، وأسد الغابـة : ١٢٧/١، وتهذيب التهذيب : ٣٧١/١، وتذكـرة الحفـــاظ : ٤٤/١ .

(٣) أبـو طلحـة : هو زيـد بن سهـل بن الاسود بن حزم عمـرو بن زيـد مناة الأنصاري الخزرجـــي النجاري أبو طلحة من أكابر الصحابة وفضلائهـم وشجعـانهم شهـد مع الرسول ﷺ بيعـة العقبـة والمشاهد كلها ولد سنة (٣٦ قبل الهجرة وتوفى سنـة اربـع وقيـل اثنتين وثـلاثين وقيـل سنـة خمسين أو إحـدى وخمسين ترجمتـه في الكـتب السالفـة الذكـر اعنـي : الاصابـة : ٥٦٦/١ ، والاستيعـاب بهامش الاصابة : ص ٥٤٩ .

الخطاب وعمومه ، فإن الصحابة رضوان الله عنهم اجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك ألا ترى أن أبا طلحة حين سمع الآية لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذي يريد الله أن يقف منه عباده بآية أخرى أو سنة مبينة لذلك فإنهم يحبون اشياء كثيرة، واستدلوا[1] أيضاً بما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» رواه مسلم واللفظ له[2] . وأبن ماجة [3] والترمذي، وأبو داود، وأحمد، ووجه الاستدلال أنه نص على الصدقة الجارية مما لا ينقطع اجرها عن العبد ولا يمكن تصوير جريان الصدقة إلا حبسا فهو مندوب اليه .

قال النووي : ما نصه : وفيه دليل لصحة أصل الوقف وعظم ثوابه » .

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي : ٨٥/١١، وسنن أبي داود : ١١٧/٣، والفتح الرباني : ١٧٧/١٥، وسنن ابن ماجه : ٨٨/١، وسنن الترمذي بشرح تحفة الاحوذي: ٣٩٨/٢ .

(٢) هو الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري وقد أجمع العلماء على جلالته وإمامته وعلو مرتبته وحذقته في الحديث وتقدمه فيه وأكبر الأدلة على ذلك كتاب الصحيح، توفى رحمه الله سنة ٢٦١ انظر ترجمته في خلاصة التهذيب ص ٣٢٠، ووفيات الاعيان : ٢٨٠/٤ وطبقات السيوطي ص ٢٦٠ .

(٣) ابن ماجه : هو محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني أحد الاعلام وصاحب السنن والتفسير ثقة كبير متفق عليه في الحديث محتج به له معرفة وحفظ توفي سنة ٢٧٣ وانظر ترجمته في خلاصة التهذيب : ص ٣١٢ وتهذيب التهذيب : ٥٣٠/٩ ، وطبقات السيوطي : ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

الأدلة الخاصة بالوقف

استدل لرأي القائلين بجواز الوقف بما يلي :

وقف رسول الله ﷺ ، فقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام وقف في سبيل الله ارضا له [1].

فقد روى عن عمر بن الحارث ابن المصطلق أنه قال : «ما ترك رسول الله ﷺ إلا بغلته البيضاء وسلاحه وارضا تركها صدقة» رواه البخاري واللفظ له ، والبيهقي، والنسائي، والدارقطني .

---

(١) انظر البخاري بهامش الفتح : ٢٣١/٥ ، والسنن الكبرى : ١٦٠/٦ ، وسنن النسائي : ٢٢٩/٦ ، وسنن الدارقطني : ٥٠٢/٢ .

«الاعلام في الحديث السابق»

الترمذي : هو محمد بن عيسى بن سورة السلمي أبو عيسى الترمذي الحافظ الضرير وصاحب الجامع الصحيح «في الحديث» وألف في تفسيره أيضا مات سنة ٢٧٩، أنظر ترجمته في خلاصة التهذيب ص : ٢٩٣، والأعلام : ٢١٣/٧، وطبقات السيوطي : ص ٢٧٨ .

النسائي : هو محمد بن شعيب بن علي بن سنان النسائي أبو عبد الرحمن القاضي الحافظ صاحب السنن وأحد الاعلام المبرزين والحافظ توفي في فلسطين ودفن ببيت المقدس وقيل بمكة سنة ٣٠٤ شهيدا رحمه الله، لأنه مات من التعذيب، أنظر ترجمته في خلاصة التهذيب ص ٦، وطبقات السيوطي : ٣٠٣، والبداية والنهاية : ١٢٣/١١ وتهذيب التهذيب : ٣٦/٢، وشذرات الذهب : ٢٣٩/٢ .

الدارقطني : هو الإمام الكبير علي بن عمر الدارقطني (٣٠٦ ــ ٣٨٥) حافظ عصره الفذ في علم الحديث ومعرفة علله ورجاله وكان فقيها على مذهب الشافعي له مؤلفات منها : السنن، والمختلف، والمؤتلف. أنظر ترجمته في البداية والنهاية : ٣١٧/١١، وتاريخ بغداد : ٣٤/١٢، وطبقات السيوطي : ص ٣٩٣، وشذرات الذهب : ١١٦/٣، والنجوم الزاهرة : ١٧٢/٤ .

وروى عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ «جعل سبع حيطان له بالمدينة صدقة على بني عبد المطلب وبني هاشم». رواه البيهقي [1] .

وروى عن ابن طاوس [2] عن أبيه قال : اخبرني المدري أن صدقة رسول الله ﷺ يأكل منها أهله بالمعروف غير المنكر . رواه ابن أبي شيبة في مصنفه[3] .

وقد أخرج الشيخان ، واللفظ للبخاري[4]عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :(أصاب عمر بخيبر أرضا فأتى النبي ﷺ فقال : أصبت أرضا لم

---

(١) البيهقي هو : أحمد بن الحسن بن علي البيهقي أبو بكر أحد أعلام الشافعية وإمام من أئمة الحديث صاحب السنن الكبرى ولد في شعبان سنة اربع وثمانين وثلاثمائة وتوفي في العاشر من جمادي الآخرة سنة ثمان وخمسين واربعمائه .

انظر ترجمته في الطبقات للسبكي : ٨/٤ ، وطبقات الأسنوي : ١٩٩/١ ، وطبقات الحسين : ص ٥٥ ، والبداية والنهاية : ٩٤/٢ .

(٢) حجر المدري : هو ابن قيس الهمذاني المدري اليمني تابع شقة وكان من خيار التابعين . وذكره ابن حيان في الثقات .

انظر تهذيب التهذيب : ٢١٥/٢ .

(٣) ابن أبي شيبة : هو أبو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي مولاهم الكوفي الحافظ المحدث الفقيه، روى عن البخاري ومسلم وأبي داود وابن ماجه وأبي زرعة وأبي حاتم وغيرهم ومن تصانيفه : السنن في الفقه، والمسند في الحديث، توفى سنة خمس وثلاثين ومائتين . أنظر ترجمته في طبقات السيوطي : ١٧٩ وخلاصة تهذيب الكمال : ١٧٩/١٠، ومعجم المؤلفين : ١٠٥/٦ .

(٤) أنظر البخاري مع فتح الباري : ٢٥٩/٥ ـــ ٢٦٠ ومسلم بشرح النووي : ٨٥/١ ـــ ٨٦ والسنن الكبرى للبيهقي : ١٥٨/٦ ـــ ١٥٩ وسنن الدارقطني : ٥٠٣/٢، وتعليق المغني بهامش الدارقطني ٥٠٤/٢، والمسند للإمام أحمد : ١٦٤/٧ و ٢٧٧/٦، والترمذي بهامش تحفة الأحوذي : ٣٩٧/٢ ـــ ٣٩٧ وسنن أبي داود : ١١٦/٣ ـــ ١٨٨، ونيل الأوطار : ١٨/٦، وسبل السلام : ٨٦/٣ .

أصب مالا قط أنفس منه فكيف تأمرني به . قال : «إن شئت حبست أصلها وتصدق بها» فتصدق عمر أن لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث في الفقراء والقربى والرقاب في سبيل الله والضيف وابن السبيل لا جناح على من وليها أن يأكل منها غير ممول فيه) متفق عليه .

أما الحديث الذي جاء في مصنف ابن أبي شيبة فقد قال الزيلعي في نصب الراية [1] ما نصه : (وفي مصنف ابن أبي شيبة في باب الأحاديث التي اعترض بها على أبي حنيفة حدثنا ابن عيينة عن ابن طاوس عن أبيه اخبرني حجر المدري قال في صدقة النبي ﷺ يأكل منها أهلها بالمعروف غير المنكر) .

وأيضا ماروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أمر بالمسجد وقال : «يابني النجار ثامنوني حائطكم هذا» فقالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله) رواه البخاري [2] .

وما روي عن أبي هريرة [3] رضي الله عنه أنه قال : (بعث النبي ﷺ عمر بن الخطاب على الصدقات فمنع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس، فقال النبي ﷺ : «ما ينقم ابن جميل إلا ان كان فقيراً فأغناه الله وأما خالد فانكم تظلمون خالدا . وقد احتبس ادراعه واعتده في سبيل الله، وأما العباس

(١) نصب الراية للإمام الزيلعي : ٤٧٩/٣ .

(٢) البخاري بهامش فتح الباري : ٢٦٣/٥ .

(٣) أبو هريرة، هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي، اختلف الناس في اسمه واسم أبيه وما اثبته هو المشهور صحابي جليل، وهو أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ، وأحفظهم لحديثه . قال الشعبي : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في الدنيا ــ توفي بالمدينة سنة سبع وقيل ثمان وقيل تسع وخمسين وهو ابن ثمان وسبعين، انظر ترجمته في الاصابة والاستيعاب : ٢٠٢/٤، وأسد الغابة : ٣١٥/٥ .

عم الرسول ﷺ ، فهي على ومثلها» رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم والبيهقي .

ووجه الاستدلال أن النبي ﷺ أقر لخالد حبس اعتده فيكون النهي دليلا على صحة الوقف وجوازه ولو كان الحبس غير جائز لما أقر النبي ﷺ خالدا على فعله .

أقول وبالله التوفيق : أوقاف الصحابة والتابعين مشهورة معروفة حتى الآن، وجواز الوقف واستحبابه أشهر من أن يطلب له دليل بل هو من أجل أعمال البر وأحاديثه ما بين متفق عليه وحسن ومشهور .

وبعد أن قدمت من الأدلة الصريحة ما يكفي لثبوته انتقل إلى أدلة الأحناف لنرى ما قاله فيه الإمام الجليل أبو حنيفة رضي الله عنه ونتتبع ما عزى اليه من قول في منع الاحباس ورد الأوقاف علما بأن الذين عزو اليه القول بالمنع هم أهل التحقيق والتنقيح وعلى رأسهم أبو عبد الله القرطبي في تفسيره جامع البيان .

رأي الطائفة المانعة للوقف مطلقا

وقد ذهب إلى المنع القاضي شريح وأبو حنيفة في رواية عنه وهو قول عامة أهل الكوفة (١) .

وقبل أن أنقل أدلة هذه الطائفة وأقوالها لابد من تحرير الرواية في هذا الموضوع عن أبي حنيفة وما اسند إليه من منع الوقف لأن هذه الرواية عنه فيها ارتباك بسبب عدم اتفاق فقهاء الحنفية على المراد بها عنده .

---

(١) انظر وقف هلال : ص ٥، والمبسوط : ٢٩/١٢ حيث يقول : وسئل الشعبي عن الحبس فقال : جاء محمد ﷺ ببيع الحبس وقال ابن مسعود وابن عباس لا حبس عن فرائض الله .

رأي ابي حنيفة في جواز الوقف

انقسم الحنفية فيما يتعلق بالرواية عن أبي حنيفة إلى ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : صرحوا عنه بالبطلان :

فقد صرح هلال [1] في وقفه بما نصه: قلت: أرأيت رجلا قال أرضي هذه وسمى حدودها صدقة موقوفة ثم لم يزد على ذلك شيئاً . قال أبو حنيفة رحمه الله : هذا كله باطل ولا يكون وقفا ولوله ان يحدث فيه ما بدا له بعد ذلك [2] . وهذا قول العامة من أهل الكوفة .

الفرقة الثانية : قالوا عنه أنه لا يجيز الوقف :

فقد ذكر محمد في الأصل قال : كان أبو حنيفة لا يجيز الوقف فأخذ بعض الناس بظاهر هذا اللفظ فقالوا [3]: لا يجوز الوقف عنده .

وجاء في التبيين [4] : الوقف لا يجوز عند أبي حنيفة اصلا وهو : المذكور في الأصل ـــ أي : مبسوط محمد .

وقال الخصاف [5] : أخبرني أبي الحسن بن زياد قال أبو حنيفة رحمه

---

(1) هلال بن يحيى بن مسلم البصري الرأي من أعيان الحنفية سمي هلال الرأي لاشتهاره به وكان على مذهب الكوفيين، ورأيهم ، توفي سنة ٢٤٥ ، أنظر ترجمته في الجواهر المضيئة : ٢٠٥/٢، والاعلام : ٩٥/٩ .

(2) وقف هلال : ص ٥ .

(3) أنظر حاشية ابن عابدين : ٤٩٤/٣ والاسعاف : ص ٣ والمبسوط : ٢٧/١٢ .

(4) انظر تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ـــ ٣٢٥/٣ .

(5) هو أحمد بن عمرو أبو بكر الخصاف الشيباني فقيه حنفي ورع له عدة مصنفات منها : (كتاب الوصايا وكتاب الرضاع وكتاب آداب القاضي وكتاب احكام الوقف) توفى سنة ٢٦١ أنظر ترجمته في طبقات الحنفية : ٤٨٤/١، وتاج التراجم ص ٧ .

الله : لا يجوز الوقف إلا ما كان على طريق الوصايا وذكر الطحاوي [1] في مختصره ما نصه : (ولا يجوز تحبيس الرجل داره ولا أرضه ولا وقفه لهما ولا صدقته لهما وإن جعل آخرهما لله عز وجل في قول أبي حنيفة رضي الله عنه إلا أن فعل ذلك في مرضه الذي مات فيه فيخرج مخرج الوصايا ويجوز لما تجوز الوصايا) .

وقد روى عن محمد بن الحسن عن أبي حنيفة ان ذلك لا يجوز منه في مرضه كما لا يجوز منه في صحته وأنه لا يخرج مخرج الوصايا وهو الصحيح على أصوله .

الفرقة الثالثة : قالوا أنه يجيزه ولكنه غير لازم عنده :

قال الدكتور محمد عبد الله الكبيسي [2] : (وجمهور أصحاب هذا القول ليس عندهم ما يستدلون به على هذا إلا تأويلهم لعدم الجواز بعدم اللزوم) . وهذا عند من أراد التوفيق بين الروايتين .

ومنهم من أطلق الجواز دون التأويل، جاء في الدر المختار ما نصه [3] :

والأصح : أنه عنده جائز غير لازم كالعارية .

وقال في الاسعاف [4] : وهو جائز عند علمائنا أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله ثم قال : وإنما الخلاف بينهم في اللزوم وعدمه فعند أبي حنيفة رحمه الله يجوز جواز الإعارة .

(١) انظر مختصر الطحاوي تحقيق أبو الوفاء الأفغاني : ص ١٣٦ .

(٢) هو دكتور محاضر في جامعة بغداد وابحاثه معروفة ومعاصر له كتاب احكام الوقف في الشريعة الاسلامية وهو كتاب نفيس يدل على غزارة علمه وإدراكه للأصول والفروع جزاه الله خيرا على خدمة الاسلام والمسلمين .

(٣) الدر المختار مع حاشية ابن عابدين : ٤٩٤/٣ .

(٤) انظر الاسعاف : ص ٣ .

وقال ابن عابدين في حاشيته على الدر والصحيح أنه جائز عند الكل وإنما الخلاف بينهم في اللزوم وعدمه) وقال السرخسي [1] : وظن بعض أصحابنا أنه غير جائز على قول أبي حنيفة واليه يشير في ظاهر الرواية، فيقول : أما ابو حنيفة فكان لا يجيز ذلك ومراده : أنه لا يجعله لازما، فأما أصل الجواز فثابت عنده لأنه جعل الواقف حابسا للعين على ملكه صارفا للمنفعة إلى الجهة التي سماها فيكون بمنزلة العارية، والعارية جائزة غير لازمة .

وجاء في التبيين [2] بعد ذكره لرأي أبي حنيفة في عدم الجواز كما هو مذكور في الأصل . وقيل يجوز عنده إلا أنه لا يلزم بمنزلة العارية[3]. حتى يرجع فيه في أي وقت يشاء ويورث عنه إذا مات وهو الأصح .

وقال في الهداية وهو في الشرع عند ابي حنيفة حبس العين على ملك الواقف والمتصدق بالمنفعة بمنزلة العارية ثم قيل : المنفعة معدومة فالتصدق بالمعدوم لا يصح، فلا يجوز الوقف اصلا عنده ، وهو الملفوظ في الأصل والأصح : أنه جائز عنده إلا أنه غير لازم بمنزلة العارية .

قال الدكتور محمد عبيد في كتاب أحكام الوقف بعد أن ذكر أدلة الأقوال : ومن هذا يتبين أن من فقهاء الاحناف من ذكر الروايتين عن الإمام ابي حنيفة ومنهم من ذكر رواية واحدة وهي : المذكورة في الأصل لمحمد ابن الحسن مكتفيا بتفسير كلمة «لا يجيز» بعدم اللزوم وهذا ما فعله الإمام السرخسي كما رأينا غير أن ما ذهب إليه السرخسي لم يسلم له وأقل ما يقال فيه : أنه تحميل للنص مالا يحتمل لأنه لم يقدم ما يبرهن على أن المراد بـ «لا يجيز» أنه جائز غير لازم .

---

(١) انظر المبسوط : ١٢ : ٣٧ .

(٢) أنظر تبيين الحقائق بشرح كنز الدقائق : ٣/٣٢٥ .

(٣) انظر الهداية بهامش فتح القدير : ٥/٤٠ .

فإذا ما علمنا أن الذي عبر عن رأي ابي حنيفة **بقوله** : «لا يجيز» ما هو إلا صاحبه محمد ابن الحسن الذي هو علم من أعلام اللغة وإمام من أئمتها كان هذا مدعاة للتردد في قبول تأويل السرخسي، واقتصاره على رواية واحدة وهي «الجواز غير اللازم» فليس ما يمنع محمد رحمه الله من التعبير عن رأي ابي حنيفة، بغير «لا يجيز» فيما لو كان الأمر كما ذكره السرخسي من أنه يعني : (جائز غير لازم) ولا يعجزه أن يجد تعبيرا يدل على هذا المعنى مباشرة ويؤيد هذا أن هلال بن يحيى قد عبر عن هذا بقوله قال : أبو حنيفة رحمه الله : هذا كله باطل لا يجوز وهي مساوية في المعنى ــ للتعبير بـ «لا يجيز» .

فما هو ياترى رأي السرخسي في تعبير هلال هذا وهل ينطبق عليه تأويله السابق بالجواز وعدم اللزوم، أضف إلى هذا أن هلالا رحمه الله هو صاحب ابي يوسف ومحمد صاحب أبي حنيفة وقد روى روايته بالبطلان وبهذا يكون هو ومحمد أقرب إلى ابي حنيفة من الإمام السرخسي الذي جاء بعدهما بقرون ولو فهم محمد وهلال[1] من رأي أبي حنيفة ما فهمه السرخسي لما امتنع عليهما ذكره أما وقد اطلقا القول بالبطلان وعدم الجواز فلا يسعنا بعد ذلك أن نتقبل قول السرخسي وتفسيره لذلك وهو المتأخر .

---

(١) انظر وقف هلال : ص ٥ وكتاب الدكتور محمد عبيد في احكام الوقف ص ١١٠ ــ ١١٩

وخلاصة الأمر :

أن كلام المتأخرين وإنكارهم أن أبا حنيفة قد منع الوقف كلام يحتاج إلى دليل وليس ذلك عندهم فيبقى القول : أن أبا حنيفة قد منع الحبس في رواية عنه ولا يغير من ذلك القول بنفيه عند متأخري الحنفية وقد فطن ابن جزي الكلبي [1] إلى هذه الحقيقة فقال : التحبيس وهو جائز [2] عند الإمامين الشافعي ومالك وغيرهما . خلافا لأبي حنيفة وقد رجع عن ذلك صاحبه أبو يوسف لما ناظره مالك .. وصار المتأخرون من الحنفية ينكرون منع إمامهم ويقولون : مذهبه أنه جائز ولكن لا يلزم .

والذي يستقريء كتب الحنفية يجد المتأخرين منهم معنيين كثيراً بنفي المنع عن إمامهم وإن اعتدلوا، حاولوا تقريبه مما ذهب إليه جمهور الفقهاء كما ذهب إليه الكساني وصاحب الاسعاف [3] . فقد جاء في البدائع ما نصه : لا خلاف بين العلماء في حق وجوب التصدق بالفرع مادام الواقف حيا حتى أن من وقف داره أو ارضه يلزمه التصدق بغلة الدار والأرض ويكون بمنزلة النذر بالتصدق بالغلة .

ولا خلاف ايضاً في حق زوال ملك الرقبة إذا اتصل به قضاء القاضي أو إضافة إلى ما بعد الموت .

---

(١) هو محمد بن أحمد بن جزي الكلبي من أهل غرناطة كان فقيها مالكيا حافظاً الف كثيرا من الكتب في فنون شتى منها كتاب وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم، وكتاب القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية ، وكتاب تقريب الأصول إلى علم الوصول، والنور المبين في قواعد عقائد الدين، توفي شهيدا عام ٧٤١ انظر ترجمته في الديباج ص ٢٩٥ .

(٢) القوانين الفقهية ص ٣٦٩ .

(٣) بدائع الصنائع : ٩٣٩٠٨/٨ .

وإختلفوا في جوازه مزيلا لملك الرقبة إذا لم توجد الاضافة إلى ما بعد الموت .. ولا اتصل به حكم حاكم .

قال أبو حنيفة عليه رحمة الله : لا يجوز حتى كان للواقف بيع الموقوف وهبته وإذا مات يصير ميراثا لورثته، وقال أبو يوسف ومحمد وعامة العلماء رضي الله عنهم يجوز حتى لا يباع ولا يوهب ولا يورث .

وقال صاحب الاسعاف فلو قال : أرضي هذه صدقة موقوفة مؤبدة جاز لازما عند عامة العلماء وعند أبي حنيفة رحمه الله يكون نذرا بالصدقة بغلة الأرض ويبقى ملكه على حاله فإذا مات تورث عنه وهكذا حاول هذان الفقيهان أن ينقلا الرواية عن أبي حنيفة من القول بالبطلان إلى معالجة بعض الصور المحددة كما فعل صاحب الاسعاف فقد اقتصر على صيغة واحدة من الصيغ التي ينعقد بها الوقف وسكت عن سائرها مما يفهم منه : أن أبا حنيفة يقول بجواز الوقف حينئذ .

وقال : أن الصدقة بهذه الصيغة تكون نذرا بالغلة لا بالعين أخذا من (كلمة موقوف)[1] مع أن هلال بن يحيى قال في كتابه ما نصه : (أرأيت رجلا قال أرضي هذه — وسمى حدودها — صدقة موقوفة ثم لم يزد على ذلك شيئاً : قال أبو حنيفة رحمه الله : هذا كله باطل لا يجوز ولا يكون وقفا وله أن يحدث فيه ما بدا له بعد ذلك وهذا كله قول العامة من أهل الكوفة) .

فمن أين جاء صاحب الاسعاف بهذا الفرق بين الصيغة التي ذكرها وبين الصيغ الأخرى ، كما ان عبارة صاحب البدائع : (لا خلاف بين العلماء) تشمل في عمومها أبا حنيفة أيضا بل أنه صرح به كما أنه يؤخذ من عبارة صاحب البدائع أيضاً أن وجوب الصدقة بالغلة لا يختص بصيغة معينة

(١) أنظر كتاب الوقف وبيان أحكامه للشيخ أحمد بن إبراهيم ص : ٢٤ — ٢٧ .

من الصيغ التي ينعقد بها الوقف لأنه عمم ولم يخصص، ثم جعله كالنذر على قول أبي حنيفة إلا أن هذا كله لا يفيد في صرف الرواية عن ظاهرها الذي يفيد أنه يمنع الوقف أصلا، ويؤيد هذا ما جاء في شرح الباجي لشرح الموطأ وحاشية الرهوني على شرح عبد الباقي لمتن خليل : من مناقشة مالك لأبي يوسف في جواز الوقف بحضرة الرشيد واقتناع أبي يوسف بالحجة حتى قال: «كان أبو يوسف يقول أنها غير جائزة، وأنا أقول أنها جائزة»

فرجع في الحال عن قول أبي حنيفة إلى الجواز، وقد علق الباجي [1]على هذا بقوله : (وهذا فعل أهل الدين والعلم في الرجوع إلى الحق حين ظهر وتبين) وفي آداب الشافعي [2] ومناقبه ينقل ابن أبي (حاتم عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قوله : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : اجتمع مالك وأبو يوسف يعقوب عند أمير المؤمنين فتكلموا في الوقف وما يحبسه الإنسان فقال يعقوب : هذا باطل .

قال شريح جاء محمد ﷺ باطلاق الحبس . فقال مالك : إنما جاء محمد باطلاق ما كانوا يحبسونه لآلهتهم من البحيرة والسائبة . فأما الوقف فهذا وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث استأذن النبي ﷺ فقال : (حبس أصلها وسبل ثمرها) وهذا وقف الزبير، فأعجب الخليفة ذلك منه» .

وقد روى عن أبي يوسف أنه قال[3] : لو بلغ ــ يريد الدليل ــ أبا حنيفة لرجع . أي : عن القول بعدم جواز الوقف، وتلخص من هذا أن أبا حنيفة لا يقول بجواز الوقف أصلا إلا في حالتين قد بينتهما سابقا ولا مانع من تكرار البيان ليستقر في ذهن القاريء وهما :

---

(١) انظر المنتقى للباجي : ١٢٢/٦ وحاشية الرهوني على الزرقاني : ١٣٠/١٠ .

(٢) انظر آداب الشافعي ومناقبه للرازي : ص ١٩٧ ــ ١٩٩ ط السعادة .

(٣) انظر المبسوط : ٢٨/١٢، والاسعاف : ص ٣ .

إذا اتصل به حكم حاكم أو إذا اضافه إلى ما بعد الموت .

ففي هاتين الحالتين يقول أبو حنيفة رحمه الله بجواز الوقف [1] فيرتفع الخلاف بين الحنفية في هاتين المسألتين وفي الحقيقة أن الحالتين السابقتين لا تخرجان على جواز الوقف وعدم جوازه وإنما تتخرجان عن قاعدتين هما .

القاعدة الأولى : ان القضاء يرفع الخلاف فمتى قضي القاضي باللزوم لا يرد حكمه أحد . فاللزوم : عرضي لا ذاتي .

القاعدة الثانية : أن كل تصرف مضاف إلى ما بعد الموت وصية أيا كانت التسمية التي تعطي له وعلى هذا تتخرج الحالة الثانية ويؤيد ما ذهبنا إليه قول الدكتور محمد عبيد [2] ، أن أبا حنيفة لا يقول بجواز الوقف إلا في الحالتين السابقتين اللتين ذكرتهما . وما ذكره الدكتور يؤيده ما قاله الكمال بن الهمام حيث يقول[3] : (وإذا لم يزل ملكه عند أبي حنيفة قبل الحكم يكون موجب القول المذكور : حبس العين على ملك الواقف، والتصدق بالمنفعة، وحقيقته ليس إلا التصدق بالمنفعة، ولفظ حبس إلى آخره لا معنى له لأن له بيعه متى شاء وملكه مستمر فيه كما لو لم يتصدق بمنفعته، فلم يحدث الواقف إلا مشيئة التصدق بمنفعته وله أن يترك ذلك متى شاء وهذا القدر كان ثابتا له قبل الوقف بلا ذكر لفظ الوقف فلم يفد لفظ الوقف شيئاً .

وهذا معنى ما ذكره في المبسوط من قوله : كان أبو حنيفة لا يجيز الوقف وهو : ما أراد المصنف ــ صاحب الهداية ــ بقوله : (وهو الملفوظ في الأصل) يعني : المبسوط وحينئذ فقول من أخذ بظاهر هذا

---

(١) كتاب احكام الوقف في الشريعة الاسلامية : ص ١١٤ .

(٢) كتاب : احكام الوقف في الشريعة الاسلامية : ص ١١٤ .

(٣) انظر فتح القدير : ٤٠/٥ .

اللفظ، فقال : الوقف عند أبي حنيفة : لا يجوز ــ صحيح لأنه ظهر : أنه لم يثبت به قيل الحكم حكم لم يكن، وإذا لم يكن له أثر زائد على ما كان قبله كان كالمعدوم والجواز والنفاذ والصحة فرع اعتبار الوجود .

أقول وبالله التوفيق : الصاق القول أو بعبارة أخرى نسبت هذا القول إلى أبي حنيفة رحمه الله لا مناص منها حسب ما رأيت في كتب الحنفية والله أعلم وأحكم .

ومهما كان النقل عنه فإن الوقف قربة إلى الله تعالى لا يمنع منه شرع ولا عقل وليست له صلة بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام . فإن ما قصد بها أمر منعه الشرع بل الغاه لأن الله لا يتقرب إليه إلا بما شرع .

أما الوقف وهو : حبس العين والمنفعة على جهة من جهات البر لا على معصية فقربة إلى الله ومن الممكن للعقل السليم أن يدرك الفرق بين ما نفى الله مشروعيته وما اثبته .

فالثاني الباعث إليه التقرب إلى الله ، والتآسي برسوله ﷺ ولذلك ختم الله الآية بعد ذكر الأربعة الاصناف فقال : (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) إذ أنه كي يصح العمل يجب أن يكون مشروعا وهم افتروا على الله كذبا وبهتانا ولا يقبل العمل إلا اذا كانت النية خالصة لله إذ لو خلصوا لانقادوا . ولما عرضوا انفسهم لسخط الله وغضبه .

وفي قوله (الكذب) يدل على شناعة ما فعلوه من محض افتراء واختلاق . وزعموا من غير علم ان الله أمرهم بهذا وقد كذبهم الله في دعواهم وسلب عن أكثرهم العقل فقال : ﴿وأكثرهم لا يعقلون﴾ ومن المعلوم أن العقل الذي يخاطبه الإسلام هو العقل الذي يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز المشتبهات ويوازن بين الأضداد وأنه العقل الذي يقابل الجمود والتعنت والضلال وليس بالعقل الذي يقابله الجنون فإن الجنون مسقط

للتكليف، والمشركون من العرب خمدوا على ما ورثــوه وتعنتــوا فضلـــوا وأضلوا والعياذ بالله تعالى .

وهنا ننهي بحث ما نسب إلى أبي حنيفة رحمه الله من رد الاحباس ومنـع الأوقـاف بعـد أن عن لنـا في الموضوع وكان من ضمـن ما استنتـج من آية : ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ .

والله أسأل أن أكـون قد أتـيت فيـه بما يعلـم الجاهـل ويذكـر العـالم من غير تقصير مخل أو تطويل ممل .

ونبدأ بالنقطة الأخيرة مما كان عليـه أهـل الجاهليـة من تطير ونـذر لغير الله وتشاؤم ، والله الموفق .

باب النذر لغير الله ـــ والذبح لغير الله

قال تعالى : ﴿قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ [1] .

قال الحافظ بن كثير [2] : يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه ان لا شريك له ، وهذا كقوله : ﴿فصل لربك وانحر﴾ [3] . أي : اخلص له العبادة : صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمر الله بمخالفتهم والإنحراف عما هم فيه .

والاقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى : قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿صلاتي ونسكي﴾ [4] . قال : النسك : الذبح في الحج والعمرة وقال النووي عن السدي عن سعيد بن جبير : (ونسكي) ذبحي ، وكذا قال الضحاك وقول غيره. (ومحياي): ومماتي : أي : ما آتيه في حياتي وأموت عليه من الإيمان والعمل الصالح لله رب العالمين خالصة لوجهه لا شريك له وبذلك من الاخلاص أمرت وأنا أول المسلمين : أي من هذه الأمة .

قال ابن كثير : وهو كما قال فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى :

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٦٤ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١٩٨/٢ ، عيسى البابي الحلبي وأولاده .

(٣) سورة الكوثر : الآية ٣ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٦٢ .

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1] وأخبر تعالى عن نوح أنه عليه السلام قال لقومه: ﴿فإن توليتم فما سألتكم عليه من أجر إن أجري إلا على الله، وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ .

أقول وبالله التوفيق : في الآية دلالة واضحة على أن الذبح لغير الله شرك كما هو مبين وفيها بيان العبادة وأن التوحيد مناف للشرك مضاد له .

وفي قوله : ﴿فصل لربك وانحر﴾ قال شيخ الإسلام : أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن وقوة اليقين وطمأنينة القلب إلى الله ، وإلى عبادته عكس حال أهل الكفر والنفرة وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها والذين لا ينحرون له خوفا من الفقر ولهذا جمع بينهما في قوله تعالى : ﴿قل ان صلاتي ونسكي﴾ الآية . والنسك : الذبيحة لله تعالى إبتغاء وجهه فإنها أجل ما يتقرب به إلى الله فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السببية لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله من الكوثر .

وأجل العبادات البدنية الصلاة وأجل العبادات المالية النحر ، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها كما عرفه ارباب القلوب الحية وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والاخلاص وقوة اليقين وحسن الظن أمر عجيب ، وكان النبي ﷺ كثير الصلاة كثير النحر .

أقول وبالله التوفق : هذا هو أصح الأقوال في معنى النحر، وأما ما رواه الحاكم عن علي بن أبي طالب [2] قال : لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ : ﴿إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر ان شانئك هو الابتر﴾

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٢٧ .

(٢) المستدرك على الصحيحين : ٥٣٨/٢، مطابع النصر الحديثة الرياض .

قال رسول الله ﷺ لجبريل :« ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي؟ قال إنها ليست بنحيرة ولكن يأمرك إذا أحرمت للصلاة أن ترفع يدك إذا كبرت وإذا رفعت رأسك من الركوع» .. الحديث .

فهو حديث منكر جداً في اسناده اسرائيل ابن حاتم قال ابن حبان يروي عن مقاتل الموضوعات والأوابد والطامات من ذلك خبر يرويه عن بن صبح عن مقاتل وظفر به اسرائيل فرواه عن مقاتل عن الأصبغ بن نباته عن علي لما نزلت : ﴿فصل لربك وانحر﴾ الحديث وقد جاء حديث آخر يضاد هذا المعنى .

ومن رواية علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى محدثا، ولعن الله من غير منار الأرض»[1]. رواه مسلم، ورواه الإمام أحمد .

أقول وبالله التوفيق : اللعنة : هي الطرد والبعد من رحمة الله أعاذنا الله ، واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها .

قال أبو السعادات : أصل اللعنة : الطرد والابعادمن الله ومن الخلق السب والدعاء، والذبح لغير الله .

قال النووي : المراد به أن يذبح باسم غير الله كمن يذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو عيسى عليهما السلام . أو للكعبة ونحو ذلك وكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلما أو نصرانيا أو يهوديا نص عليه الشافعي فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له كان ذلك كفرا فإن كان الذابح مسلما قبل ذلك صار بالذبح مرتدا .

---

(١) رواه الإمام مسلم بن الحجاج من طرق ورواه الإمام أحمد عن أبي الطفيل .

قال شيخ الإسلام : ان الله سبحانه وتعالى يلعن من يستحق اللعنة من عباده بالقول كما يصلي سبحانه على من يستحق الصلاة من عباده .

قال تعالى : ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا﴾ وقال جل ذكره : ﴿ملعونين أينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا﴾ [2] وقال : ﴿وما أهل لغير الله به﴾ .

أصل الاهلال : رفع الصوت والاعلام فالمقصود بما أهل به لغير الله ما أعلن عنه أنه منذور به لغير الله سواء كان هذا الإهلال والاعلام قبل الذبح والعبرة بالاهلال الحقيقي بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله وكذلك أيضاً ما سمي من الطعام والشراب أو غيرهما نذرا وقربه لغير الله .

والحديث فيه جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين . وأما لعن الفاسق [3] المعين ففيه قولان أحدهما أنه جائز اختاره ابن الجوزي وغيره، والثاني لا يجوز اختاره أبو بكر عبد العزيز وشيخ الاسلام .

أقول وبالله التوفيق : قوله ﷺ : «لعن الله آكل الربا» الحديث فيه دليل على جواز لعن أنواع الفساق . والمعروف عن الإمام أحمد كراهية لعن المعين كالحجاج وأمثاله ولكن يقول: كما قال تعالى : ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ [4]وأما ما يخص الذبح والتقرب فإن الله سبحانه وتعالى لا يرضى

---

(١) سورة الاحزاب : الآية ٤٣ — ٦١ .

(٢) سورة النحل : الآية ١١٥ .

(٣) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد ص ١٩٣ وفتح المجيد بشرح كتاب التوحيد : ص ١٤٥ .

(٤) سورة هود : الآية ١٩ .

من عبده أن يجعل دونه صغيرا أو كبيرا سواء خف ذلك في نظر العبد أم عظم .

وهذا المعنى متمثل في حديث طارق بن شهاب الذي جاء فيه أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل في ذبابة ودخل النار رجل في ذبابة» قالوا : وكيف ذلك يارسول الله — عليه الصلاة والسلام — قال : «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرب اليه شيئا فقالوا لاحدهما : قرب قال : ما عندي شيء، قالوا : قرب ولو ذبابة فقرب ذبابة فخلوا سبيله، فدخل النار، وقالوا للآخر : قرب، قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عز وجل فضربوا عنقه، فدخل الجنة» رواه أحمد .

هذا الحديث ذكره المصنف : صاحب تيسير العزيز الحميد معزوا لأحمد وقد عزاه اليه ابن القيم كذلك مع اني لم أجده في مسنده فلعله في غيره من كتبه .

وقوله دخل الجنة رجل في ذبابة أي : من أجل ذبابة وقد سألوا رسول الله ﷺ عن هذا الأمر العجيب لأنهم قد علموا أن الجنة لا يدخلها أحد إلا بالأعمال الصالحة كما قال تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ [1] وان النار لا يدخلها أحد إلا بالاعمال السيئة فكأنهم تقالوا ذلك وتعجبوه واحتقروه ، فبين لهم النبي ﷺ ما صير هذا الأمر الحقير عندهم عظيما يستحق هذا عليه الجنة ، ويستحق هذا الآخر عليه النار [2] ، ولعل هذين الرجلين من بني اسرائيل فإن النبي ﷺ يحدثهم عن بني اسرائيل كثيرا .

وحديث طارق [3] هذا فيه بيان عظيم الشرك ولو في شيء قليل وأنه

---

(١) سورة المائدة : الآية ٧٦ .

(٢) تيسير العزيز الحميد : ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٣) طارق : هو طارق بن شهاب البجلي الاحمس أبو عبد الله رأى النبي ﷺ وهو رجل ويقال أنه لم =

يوجب النار، الا ترى إلى هذا لما قرب إلى الصنم أتفه الاشياء ، واصغر الحيوانات وهو : الذبابة كان جزاؤه النار لإشراكه في عبادة الله إذ الذبح على سبيل القربة والتعظيم عبادة وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾ وفيه الحذر من الذنوب وان كانت صغيرة في الحسبان كما قال أنس : إنكم لتعملون اعمالا هي أدق في اعيونكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات ويلاحظ في هذا الحديث أن الرجل دخل النار بسبب لم يقصده بل اراد التخلص من الناس وشرهم . وفيه أن الرجل مسلم لأنه قال : دخل النار في ذبابة ، وفيه ايضا ان عمل القلب هو : المقصود الاعظم حتى عند عبدة الأوثان .

والرجل الآخر يدل وضعه على فضيلة التوحيد والاخلاص وفيه معرفة قدر الشرك عند المؤمنين وقدره في قلوبهم كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبهم مع أنهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر وفيه شاهد للحديث الصحيح : «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك» . وفيه التنبيه على سعة مغفرة الله وشدة عقوبته وان الأعمال بالخواتم .

نسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة .

أقول وبالله التوفيق : التشنيع في الذبح لغير الله يتناول المكان حتى أن الطاعة لا تفعل في مكان المعصية كما بين حديث ثابت ابن الضحاك قال [1] : نذر رجل أن ينحر ابلا ببوانه فسأل النبي ﷺ فقال : «هل كان فيه وثن من

= يسمع منه شيئاً ، قال البغوي : ونزل الكوفة ـ قال أبو حاتم ليست له صحبة والحديث الذي رواه مرسل وقال أبو داود رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً، قال الحافظ : إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي على الراجح وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابي ، وهو : مقبول على الراجح، وقد أخرج له النسائي عدة أحاديث وذلك مصير منه إلى إثبات صحبته وكانت وفاته على ما جزم به ابن حبان سنة ثلاث وثمانين .

(١) هو ثابت بن الضحاك بن خليفة الاشهلي صحابي مشهور روى عنه أبو قلابة وغيره ومات سنة اربع وستين .

أوثـان الجاهليـة يعبـد؟ قالـوا : لا، قال : فهـل كان فيها عيـد من أعيادهـــم ؟ قالوا : لا، قال رسول الله ﷺ : أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنـذر في معصيـة الله ولا فيما لا يملك ابن آدم» رواه ابو داود واسناده على شرطهما[1] .

بوانة : بضم الباء وقيل بفتحها .

قال البغوي : موضع في أسفل مكة دون يلملم .

قال ابو السعادات : هضبة من وراء ينبع والحديث يؤخذ منـه المنـع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن ولو بعد زواله .

قال شيخ الاسلام : العيـد : اسم لما يعـود من الاجتماع العـام على وجـه معتاد عائـد ــ أمـا بعـود ــ السنـة أو بعـود الاسبـوع أو الشهـر أو نحو ذلك والمراد هنـا الاجتماع المعتـاد من اجتماع أهـل الجاهليـة، فالعيـد يجمـــع أمـــوراً، منها : يوم عايد كيوم القطر ويوم الجمعة ومنها أعمـال تتبـع ذلك من العـادات والعبادات وقـد يختص العيـد بمكـان بعينـه . وقـد يكـون مطلقـا وكل من هذه الأمور قد يسمى عيدا فالزمان كقولـه ﷺ في يوم الجمعـة : «ان هذا يوم قد جعله الله عيدا للمسلمين»، والاجتماع والاعمال كقـول ابـن عبـاس : (شهـدت العيد مع رسول الله ﷺ) والمكان كقوله ﷺ : «لا تتخذوا قبري عيدا» .

وقد يكون لفـظ العيـد اسما لمجمـوع اليـوم والعمـل فيـه وهـو : الغـالب كقول النبي ﷺ : «دعهما يأبا بكر فإن لكل قوم عيدا» .

وفي الحديث استـفصال المفتـي والمنـع من الوفـاء بالنـذر بمكـــان عيــد الجاهليـة، ويـدل الحديث كذلك على سـد الذريعـة وتـــرك مشابهة المشركين، والمنـع مما هو وسيلـة إلى ذلك . وقولـــه « أوف بنـــذرك » هذا يدل على أن الذبـح لله في مكـان يذبـح فيـه المشركـون لغير الله . أي : في محل أعيادهـــم

(١) أبو داود : ١٤١/٩ .

معصية لأن قول (فأوف بنذرك) تعقيب بالحكم بالفاء وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم فيكون سبب الأمر بالوفاء خلوه عن هذين الوصفين .

فلما قالوا : لا ، قال : (أوف بنذرك) وهذا يقتضي أن كون البقعة مكانا لعيدهم ، أو بها وثن من أوثانهم مانع من الذبح بها ولو نذره . قاله شيخ الإسلام .

وقوله : (فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله) فيه دليل على أن هذا نذر معصية لو وجد في المكان بعض الموانع وما كان من نذر معصية فلا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء، واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين على قولين هما روايتان عن أحمد، أحدهما تجب وهو المذهب .

وروى عن ابن مسعود وابن عباس وبه قال أبو حنيفة واصحابه كحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعا [1] : (لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين) رواه أحمد وأصحاب السنن . واحتج به أحمد واسحاق .

والثاني : لا كفارة عليه، وروى ذلك عن مسروق وغيره لحديث الباب ولم يذكر فيه كفارة، وجوابه أنه ذكر الكفارة في الحديث المتقدم والمطلق يحمل على المقيد .

أقول وبالله التوفيق : الحديث على أية حال دليل من قال بموجب الكفارة في نذر المعصية . وقد جاء في حديث عمران بن حصين الذي أخرجه النسائي [2] مرفوعا بلفظ : (النذر نذران فمن كان نذر في طاعة فذلك لله فيه الوفاء، ومن كان نذر في معصية فذلك للشيطان ولا وفاء فيه

---

(١) قال الترمذي : هذا حديث لا يصح لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة وقال غيره : لم يسمعه الزهري من أبي سلمة، وإنما سمعه من سليمان بن ارقم وسليمان متروك، وقال مثل هذا أبو داود بعد إخراجه له .

(٢) سنن النسائي : ٢٧/٧ .

ويكفره ما يكفر اليمين إلا أن هذا الحديث ضعيف كما قال الحافظ .

وكذلك حديث عائشة في هذا الباب الذي تقدم والذي رواه ابن شهاب عن أبي سلمة عن عائشة قالت[1] : قال رسول الله ﷺ :« لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين» .

قال المباركفوري في تحفة الأحوذي[2]: هذا حديث لا يصح لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة .

قال الحافظ في التلخيص : رواه أحمد واصحاب السنن وهو منقطع لم يسمعه الزهري من أبي سلمة .

وقال النووي : في الروضة حديث : (لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين) ضعيف باتفاق المحدثين .

قال الحافظ قد صححه الطحاوي وأبو علي بن السكن[3] فأين الاتفاق .

أقول وبالله التوفيق : النذر غير مرغب فيه ولم يكن عند العلماء من أعمال البر المحببة إلا أن الله سبحانه مدح الوافين به فقال : ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا﴾ والوفاء به لازم إذا كان في طاعة الله[4] لقوله ﷺ : «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا

---

(١) تحفة الاحوذي : ١٢١/٥، والتلخيص : ١٧٨/٤ .

(٢) تلخيص الحبير في تخريج احاديث الرافعي الكبير : ١٧٨/٤ .

(٣) ابن السكن سعيد بن عثمان بن السكن البغدادي أبو علي من حفاظ الحديث نزل بمصر وتوفي بها قال ناصر الدين كان أحد الاعلام الحفاظ والمصنفين الايقاظ، رحل وجمع وصنف له الصحيح المنتقى في الحديث، الاعلام: ١٥١/٢، والتبيان لابن ناصر الدين وتهذيب ابن عساكر ١٥٤/٦، وتذكرة الحفاظ : ١٤٠/٣ والرسالة المستطرفة ص ٢٠ .

(٤) الموطأ : ٤٧٦/٢ .

يفعل» وهذا حديث صحيح أخرجه محمد بن نعيم عن مالك وفيه دليل على أن من نذر طاعة يلزمه الوفاء وإن لم يكن معلقا ، وان من نذر معصية فلا يلزمه الوفاء به بل لا يجوز له الوفاء به ولا تلزمه به الكفارة إذ لو كانت فيه كفارة لاشبه ان يبين وهو قول الاكثرين[1] أما ما أشرت إليه قريباً من عدم استحباب النذر عند العلماء فذلك لكثرة الاحاديث في هذا المجال الدالة على التنفير منه منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه : «ان النذر لا يقرب من ابن آدم شيئاً لم يكن الله قدره له ولكن النذر يوافق القدر فيخرج بذلك من البخيل ما لم يكن البخيل يريد أن يخرجه» [2] .

قال البغوي : هذا حديث متفق على صحته، وهو كذلك .

وجاء ايضاً في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدر شيئاً، وإنما يستخرج به من البخيل» [3] متفق عليه من رواية ابن عمر .

قال البغوي : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم كرهوا النذر في الجملة وان كان في الفواء به أجر إذا كان طاعة .[4]

قال أبو سليمان الخطابي [5] : معنى نهيه ﷺ عن النذر إنما هو

---

(١) البخاري : ٥١٩/١١ .

(٢) شرح السنة للبغوي : ٢٢/١٠ .

(٣) مسلم والبخاري : ١٦٤٠ و ١٦٣٩ ، ٥٠٩/٤٣٧/١١ .

(٤) شرح السنة للبغوي : ٢٢/١٠ .

(٥) الخطاب هو : سليمان الخطابي الفقيه محدث من أهل بست من بلاد«كابل» من نسل زيد بن الخطاب أخي عمر ابن الخطاب له معالم السنن، وبيان اعجاز القرآن، توفي في سبت، الاعلام : ٣٠٤/٢ ، تحفة ذوي الارب : ١٥٤، والوفيات : ١٦٦/٦، ومجلة المجتمع العلمي : ٢٤١/١٥، وانباء الرواة : ١٢٥/١، والبغدادي في خزانة الأدب : ٢٢٨/١ وقال : مات سنة ٣٨٦ ويتيمة الدهر : ١٣١/٤ .

التأكيد لأمره والتحذير من التهاون به بعد إيجابه ، ولو كان معناه الزجر عنه حتى لا يفعله لكان في ذلك ابطال حكمه واسقاط لزوم الوفاء به إذ صار معصية . وإنما وجه الحديث أنه اعلمهم أن ذلك الأمر لا يجلب لهم في العاجل نفعا ولا يصرف عنهم ضرا ولايرد شيئاً قضاه الله بقول فلان . تنذرون على انكم تدركون بالنذر شيئاً لم يقدره الله لكم أو تصرفون عن أنفسكم شيئاً جرى القضاء به عليكم وإذا فعلتم ذلك فاخرجوا عنه بالوفاء . فإن الذي نذرتموه لازم لكم ، هذا معنى الحديث ووجهه .

وقد أجمع المسلمون على وجوب الوفاء بالنذر إذا لم يكن معصية ويؤكده قوله : «وإنما يستخرج به من البخيل» فثبت بذلك وجوب استخراجه من ماله .

وفي قوله : «ان النذر لا يقرب من ابن آدم شيئاً لم يكن الله قدره له» استدلال لمن قال ان النذر إنما يلزم إذا كان معلقا بشيء مثل أن يقول (1) : إن شف الله مريضي فلله عليّ أن اعتق رقبة . وإن قدم غائبي أو سلم مالي فلله عليّ أن أتصدق بكذا ، وإليه ذهب بعض أهل العلم حتى قال بعض أهل اللغة : النذر : وعد على شرط .

فكل ناذر واعد وليس كل واعد ناذرا .

وذهب آخرون إلى أن النذر يلزم وإن لم يكن معلقا بشيء وهو : مذهب أبي حنيفة واظهر قولي الشافعي ولو قال على المشي إلى بيت الله الحرام ولم يقل نذرا فعليه المشي، افتى به سعيد بن المسيب .

أقول وبالله التوفيق : أصح ما مر في الموضوع من الأقوال القول بوجوب الوفاء بالنذر الحلال وعدم ذلك في النذر الحرام كما نص عليه السياق : «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه» وهذا

---

(1) شرح السنن : للبغوي ٢٣/١٠ .

حديث ثابت ونص في الموضوع ونكتفـــــي به عن الدخـــــول والخوض في الخلافات الفقهية والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

وبهذه الكلمة نكون قد أنهيت الكلام على النذر والذبح لغير الله بصفة موجزة ولله الحمد .

ونبدأ بالكلام على الاستعاذة بغير الله والاستغاثة بغيره أعاذنا الله من اللجوء إلا إليه .

الاستعاذة والاستغاثة بغير الله

والتطير والتشاؤم

قال تعالى : ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾ (١) .

أقول وبالله التوفيق : الاستعاذة الالتجاء والاعتصام ، والتحرز وحقيقتها : الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه ولهذا يسمى المستعاذ به معاذا وملجأ، فاعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه وفر إليه والقى نفسه بين يديه . واعتصم به واستجار به والتجأ اليه .

قال صاحب تيسير العزيز الحميد (٢) : وهذا تمثيل وتفهيم وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله والاعتصام به ، والافتقار إليه والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة هذا معنى كلام ابن القيم .

وقال ابن كثير (٣) : الاستعاذة هي : الالتجاء والالتصاق بجانبه من شر كل ذي شر، والعياذ يكون لدفع الشر واللياذ لطلب الخير وهذا معنى كلام غيرهما من العلماء فتبين بهذا أن الاستعاذة بالله عبادة لله ولهذا أمر الله بالاستعاذة به في غير آية وتواترت السنن عن النبي ﷺ بذلك قال تعالى : ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ (٤) .

---

(١) سورة الجن : الآية ٧ .

(٢) تيسير العزيز الحميد : ص ٢١٠ .

(٣) تفسير ابن كثير :

(٤) سورة فصلت : الآية ٣٦ .

وقال جل ذكره : ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ [1] وقال أيضاً : ﴿فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ [2] .

أقول وبالله التوفيق : النصوص بهذا الصدد كثيرة جدا ومتواترة على معنى واحد وهو : اللجوء اليه سبحانه ، قال تعالى : ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ وقال : ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى غير ذلك من الآيات المتناثرة في القرآن الكريم .

والله سبحانه وتعالى هو ربنا وخالقنا ورازقنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه ولا ملجأ لنا منه إلا اليه، ولا معبود غيره فلا يدعى ولا يخاف ولا يرجى غيره ولا يذل ولا يخضع لغيره ولا يتوكل إلا عليه لأن من تخافه وترجوه وتدعوه وتتوكل عليه إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولي شأنك فهو ربك ولا رب لك سواه وتكون مملوكه وعبده فالحق هو ملك الناس حقا وكلهم عبيده ومماليكه أو يكون معبودك وآلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك فهو إله الحق إله الناس فمن كان ربهم ومليكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم جميعا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم فكيف لا يتلجيء العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه وملكه .

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم باقرارهم بهذا التوحيد على توحيد الألوهية هذا معنى كلام ابن القيم فإذا تحقق العبد بهذه الصفات للرب والملك والإله وامتثل أمر الله واستعاذ به فلا ريب أن هذه عبادة من أجل

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ٩٧ .

(٢) سورة غافر : الآية ٦ .

العبادات بل من حقائق توحيد الالهية فإن استعاذ بغيره فهو عائذ لذلك الغير كما أن من صلى لله وصلى لغير الله يكون عابدا لغير الله كذلك في الاستعاذة ولا فرق إلا أن المخلوق يطلب منه مالا يقدر عليه إلا الله فلا يستعاذ فيه إلا بالله كالدعاء فإن الاستعاذة من أنواعه وأما قوله تعالى : ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾[1] .

قال ابن كثير [2] : أي كنا نرى أن لنا فضلا على الأنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البراري وغيرها كما كانت عادة العرب في جاهليتها، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم شيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد اعدائه في جوار رجل كبير وذمته وخفارته فلما رأت الجن أن الأنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقا أي : خوفاً . وإرهابا وذعرا حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم .

كما قال قتادة : فزادوهم رحقا : أي : إثما وإزدادت الجن عليهم بذلك جرأة .

قال الشوكاني [3] : قال الحسن وابن زيد وغيرهما : كان العرب إذا نزل الرجل بواد قال : اعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في جواره حتى يصبح فنزلت هذه الآية .

قال مقاتل : كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن ثم من بني حنيفة ثم فشى ذلك في العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم وقال في قوله : (فزادوهم رهقا) أي : زاد رجال الجن من تعوذ بهم من رجال

---

(١) سورة الجن : الآية ٦ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤٣٨/٤ .

(٣) تفسير الشوكاني : ٣٠٥/٥ .

الانس رهقا : أي سفها وطغيانا أو تكبرا وعتوا، أو زاد المستعيذون من رجال الانس من استعاذوا بهم من رجال الجن رهقا ، لأن المستعاذ بهم كانوا يقولون : سدنا الجن والأنس وبالأول قال مجاهد وقتادة وبالثاني قال أبو العالية والربيع وابن زيد، والرهق في كلام العرب [1]: الاثم وغشياة المحارم ورجل رهيق إذا كان كذلك ومنه قوله تعالى : ﴿ترهقهم ذلة﴾ أي : تغشاهم، ومنه قول الأعمش :

لا شيء ينفعني من دون رأيتها
هل يشتفي عاشق ما لم يصب رهقا

يعني : إثما وقيل الرهق الخوف أي : الجن زادت الأنس بهذا التعوذ بهم خوفا منهم .

وقيل كان الرجل من الأنس يقول : أعوذ بفلان من سادات العرب من جن هذا الوادي ويؤيد هذا ما قيل من أن لفظ رجال لا يطلق على الجن فيكون قوله (برجال) وصفا لمن يستعيذون به من رجال انس أي : يعوذون بهم من شر الجن .

وهذا فيه بعد كما قال الشوكاني في فتح القدير واطلاق لفظ رجال على الجن على تسليم عدم صحته لغة لا مانع من اطلاقه عليهم هنا من باب المشاكلة .

وقد أخرج ابن كثير بسنده [2] قال : وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد ابن يحيى بن سعيد القطان حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي حدثنا الزبير بن حرب عن عكرمة قال[3] : كان الجن يفرقون من الأنس كما يفرق

---

(١) تفسير الكشاف : ٦٢٤/٤ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٤٢٩/٤ .

تفسير ابن كثير : ٤٢٩/٤ عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس ثقة عالم ثبت عالم بالتفسير، ع

(٣) التقريب، ٣٠/٢ .

الأنس منهم أو أشد فكان الانس إذا نزلوا واديا هرب الجن فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادي فقال الجن نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الانس فزادوهم رهقا. أي : إثما وكذا قال قتادة، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا فروة بن المغراء الكندي [1] حدثنا القاسم بن مالك يعني : المزني عن عبد الرحمن بن اسحاق عن أبيه عن كردم بن أبي السائب الأنصاري، قال : خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة فآونا المبيت إلى راع غنم فلما انتصف الليل جاء ذيب فأخذ حملا من الغنم فوثب الراعي فقال : ياعامر الوادي جارك، فنادى مناد لا نراه يقول : ياسرحان أرسله فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة وأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ بمكة : ﴿ وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾.

ثم قال : وروى عن عبيد بن عمير [2] ومجاهد وأبي العالية والحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي نحوه وقد يكون هذا الذيب الذي أخذ الحمل وهو : ولد الشاة كان جنيا حتى يرهب الأنس وتخاف منه ثم رده عليه لما استجار به ليضله ويهينه ويخرجه عن دينه والله أعلم .

أقول وبالله التوفيق : هكذا تسعى شياطين الجن وشياطين الانس فالغرض الأول عندهم إضلال ابن آدم وإخراجه عن الطريق الحق والصواب في كل شيء يعن له حتى يظل حائرا ومتبعا غير سبيل المؤمنين والعياذ بالله تعالى .

---

(١) فروة بن أبي المغراء الكندي بفتح الميم والمد واسم ابيه معد يكرب الكندي يكنى ابا القاسم كوفي صدوق من العاشرة مات سنة ٢٥، خ ــ ت التقريب : ٢٠٨/٢ .

(٢) عبيد بن عمير بن قتادة الليثي أبو عاصم المكي ولد على عهد النبي ﷺ، قاله مسلم، وعده غيره في كبار التابعين وكان قاضي أهل مكة مجمع على ثقته، مات قبل ابن عمر، ع ، التقريب : ٥٤٤/١ .

وهنا ندرك ان الاستغاثة والعياذة لا يكونان إلا بالله الواحد القهار القادر على كشف الضر وإحلال النفع مكانه لأنه هو الحاضر القادر وهذه هي الصفات التي تنفع المضطر الحضور، والقدرة والكرم وهي : صفات من صفات الباري جل وعلا .

وهذه زاوية ينظر منها الموحدون ويخافون أشد الخوف من كل رغبة أو رهبة تصرف عن الله تعالى والالتجاء اليه في كل مرغوب ومرهوب .

وقد جاء في حديث ابن عمر عند أبي داود والنسائي بسند صحيح [1] قال : قال رسول الله ﷺ : « من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سأل بالله فأعطوه ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع اليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا انكم قد كافأتموه» رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح .

وظاهر الحديث وجوب اعطائه ما سأل ما لم يسأل اثما أو قطيعة رحم وقد جاء الوعيد على ذلك في عدة احاديث منها حديث أبي موسى [2] مرفوعا : «ملعون من سأل بوجه الله، ملعون من يسأل بوجهه ثم يمنع سائله ما لم يسأل هجرا» رواه الطبراني ورجال اسناده رجال الصحيح إلا شيخه يحيى بن عثمان بن صالح والأكثرون على توثيقه قوله : «فأعيذوه» أي : من سألكم أن تدفعوا عنه شركم أو شر غيركم بالله كقوله : (بالله عليكم أن تدفعوا عني شر فلان) ونحو ذلك فأعيذوه أي : إمنعوه مما استعاذ منه وكفوه عنه لتعظيم اسم الله تعالى ولهذا قالت الجوينية للنبي ﷺ أعوذ بالله منك ، قال : «لقد عذت بمعاذ الحقي بأهلك» .

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد : ص ٥٩١

(٢) هو : عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بفتح المهملة وتشديد الضاد أبو موسى الاشعري صحابي جليل مشهور أمره عمر ثم عثمان وهو أحد الحكمين بصفين واستقضاه الحجاج على المدينة سنة ٧٣ ومات سنة ست وسبعين /م . ع التقريب : ٤٤١/١ .

ولفظ أبي داود : «من استعاذكم بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه» وهذه الأحاديث دالة على إجابة من سأل بالله أو أقسم به .

ولكن شيخ الإسلام قال [١] : إنما تجب على معين، فلا تجب على سائل يقسم على الناس، وظاهر كلام الفقهاء أن ذلك مستحب كابرار القسم والأول أصح .

أقول : هذا العموم يحتاج إلى تفصيل يجب بحسب ما ورد في الكتاب والسنة فيجب إذا سأل السائل ماله فيه حق كبيت المال ان يجاب فيعطي منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوبا وكذلك إذا سأل المحتاج من في ماله فضل فيجب أن يعطي على حسب حاله ومسألته.

خصوصا إذا سأل من لا فضل عنده ، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسؤول مالا يضر به ولا يضر عائلته وإن كان مضطرا وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته[٢] .

ومقام الإنفاق كما قال صاحب فتح المجيد من أشرف مقامات الدين وتتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود وضدهما من البخل والشح فالأول محمود في الكتاب والسنة والثاني مذموم فيهما وقد حث الله تعالى عباده على الانفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه .

قال تعالى : ﴿يـاأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ [٣] .

وقال تعالى : ﴿ وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ [٤]وذلك الانفاق

---

(١) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد : ص ٥٩٢ .

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد : ص ٤١٤ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٦٧ .

(٤) سورة الحديد : الآية ٧ .

من خصال البر المذكورة في قوله : ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾[5] .

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء نصحا للأمة وحثا لهم على ما ينفعهم عاجلا وآجلا وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على الأنصار بقوله جل ذكره : ﴿يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ وقوله تعالى : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ .

أقول وبالله التوفيق : الآيات والأحاديث التي تحض على الإنفاق كثيرة جداً وثابتة ثبوت التواتر ولا سبيل لحصرها في هذا المقام ويكفي فيه ما أوردته من نصوص محكمه بالإضافة إلى قوله ﷺ : «والله ما أن لي مثل أحد ذهبا يبيت عندي منه إلا دريهما ارصده لدين» .

والله أسأل أن يجعلنا من الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن الذين يطعمون الطعام على حبه، ويطعمونه إبتغاء رضوانه يدخر ذلك ليوم تشخص فيه الأبصار إنه سميع مجيب .

ونكتفي بهذا القدر مما كان عليه أهل الجاهلية الأولى فيما يخص معتقداتهم من ناحية الذبح لغير الله والنذر لغيره والاستعاذة والاستغاثة ونبدأ بالكلام على النقطة الأخيرة من هذا الفصل وهي التطير والتشاؤم ومعتقدهم في هذا الصدد والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل .

---

(٥) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

الطــــيرة

الطــيرة : مصدر تطير يتطير[1] ، والـطيرة بكسر الطـاء وفتـح اليـاء وقــد تسكـــن : اسم مصدر من تطير طيرة كما يقـــال، تخير خيرة، ولم يجيء في المصادر على هذه الزنة غيرهما .

وتطير فلان وأطير أصله التفاؤل بالطير ثم يستعمـل في كل ما يتفـاءل به ويتشاءم، وأصله : التـطير بالسوانح والبـوارح من الـطير والظبـاء وغيرهما وكان ذلك يصد الكفار عن مقاصدهم فنفاه الشارع وأبطله وأخبر أنه لا تأثير له في جلب النفع ولا دفع الضر .

قال المدائنـي : سألت روءبةبـن الحجــاج [2] قلت : ما السانح ؟ قال : ما والاك ميامنه . قلت : فما البـارح ؟ قال : ما والاك ميـاسرة، والـذي يجيء من أمكـامك فهـو الناطـح والنطيـح والـذي يجيء من خلـفك فهـــو القاعـــد والقعيد، ولما كانت الطيرة من الشرك المنـافي لكمـال التوحيـد الـواجب لكـونها من القـاء الشيطـان وتخويفـه ووسوستـه ذكرهـا العلمـاء تمشيـــا مع مهـــمتهم الـواجب عليهم القيـام بها كي يحذر النـاس من الشرك ومـا يؤدي إليـه ويبينـوا للناس معنى النصوص المتعلقة بهذا الشأن الخطير .

قال تعالى : ﴿الا إن ما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ [3] وقال جل ذكـره : ﴿قالـوا طائـركم معكـم أئـن ذكـرتم بل أنتم قوم مسرفـون﴾

---

(١) مفردات الراغب الاصفهاني : ص ٣١٠ وفتح المجيد ص ٢٦٢ .

(٢) رؤبة : بضم أوله وسكون الواو وبعدها موحدة ابن الحجاج الراجز المشهور التيمي ثم العدوي لين الحديث فصيح ، مات بالبادية سنة خمس واربعين. خت / التقريب : ٢٥٣/١ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٣١ .

ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله : ﴿فإذا جائتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ فيقولون : هذا بسبب موسى واصحابه [1] .

المعنى : أن آل فرعون كانوا إذا اصابتهم الحسنة أي : الخصبة والسعة والعافية كما فسره مجاهد وغيره قالوا : لنا هذه .

أي : نحن الجديرون والحقيقيون به ، ونحن أهله . وان تصبهم سيئة أي : بلاء وقحط تطيروا بموسى ومن معه يقولون أصابنا هذا بشؤمهم، فقال تعالى : ﴿الا إنما طائرهم عند الله﴾ . قال ابن العباس : طائرهم : ما قضى عليهم وقدر لهم، وفي رواية : «شؤمهم عند الله» ومن قبله أي : إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم رسوله ولكن أكثرهم لا يعلمون . أي : أن أكثرهم جهال لا يدرون، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أن ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه وقوله : ﴿قالوا طائركم معكم﴾ [2]الآية ، والمعنى والله أعلم : حظكم وما نابكم من شر معكم بسبب أفعالكم ومخالفتكم الناصحين ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل ببغيكم وعدوانكم فطائر الباغي الظالم معه وهو عند الله كما قال تعالى : ﴿وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾ [3] .

ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا بما جئت به لأنه ليس فيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضي الطيرة ، لأنه خير محض لا شر فيه وصلاح لا فساد فيه .

---

(١) فتح المجيد : ص ٢٦٣ وتيسير العزيز الحميد : ص ٣٦٩ .

(٢) سورة يس : الآية ١٩ .

(٣) سورة النساء : الآية ٧٨ .

وحكمة لا عيب فيها ورحمة لا جور فيها فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا لأن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والحكمة والرحمة بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التي ينالونها منه بأعمالهم ــ ويحتمل أن يكون (طائركم معكم) أي : راجع اليكم ونظيره قوله ﷺ : «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم». ذكره ابن القيم .

وقوله (أئن ذكرتم) أي : من أجل انا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا بل أنتم قوم مسرفون .

وقال قتادة [1] : أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا؟ .

وقال ابن جرير[2] : يقول الله تعالى ذكره : الا إنما طائر آل فرعون وغيرهم وذلك انصباؤهم من الرخاء والخصب وغير ذلك من أنصباء الخير والشر عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ان ذلك كذلك فلجهلهم بذلك كانوا يتطيرون بموسى ومن معه .

أقول وبالله التوفيق : هذه هي الأعمال التي درج عليها المشركون واستمروا عليها وبنوا معتقداتهم عليها وهي من الشرك البواح والشرع، جاء محذرا منها ومبينا ان النفع والضر من تلقاء خالقنا والغير ليس له نفع ولا ضرر .

فقد ثبت في البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » وزاد

---

(١) قتادة بن دعامة الدوسي أبو الخطاب البصري : ثقة ثبت يقال ولد اكمة وهو رأس الطبقة الرابعة ، مات سنة بضع عشرة / ع التقريب : ١٢٣/٢ .

(٢) تيسير العزيز الحميد : ص ٣٧٠ .

مسلم «ولا نؤ ولا غول» .

قال أبو السعادات : العدوى : اسم للأعداء كالدعوى والبقوى من الإعدى والابقاء يقال : أعداه الداء يعديه اعداء وهو أن يصيبه مثل ما يصاحب الداء وذلك أن يكون ببعير جرب مثلا يتقي مخالطته بإبل أخرى حذار أن يتعدي ما به من الجرب اليها فيصيبها ما أصابه، وفي بعض روايت هذا الحديث، فقال أعرابي : يارسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها ؟ قال : «فمن أعدى الأول» .

وفي رواية في مسلم أن أبا هريرة كان يحدث بحديث «لا عدوى» ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال : «لا يورد ممرض على مصح» ثم أن أبا هريرة اقتصر على حديث «لا يورد ممرض على مصح» وأمسك عن حديث «لا عدوى» فراجعوه فيه فقالوا : سمعناك تحدثه فأبى أن يعترف به .

قال أبو سلمة الراوي عن أبي هريرة : فلا أدري أنسى أبو هريرة أم نسخ أحد القولين .

وقد روى حديث لا عدوى جماعة من الصحابة منهم أنس بن مالك وجابر بن عبد الله والسائب بن يزيد وعمر وغيرهم فنسيان أبي هريرة له لا يضر .

وفي بعض روايات هذا الحديث (وفر من المجذوم كما تفر من الأسد)، وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافا كثيرا فردت طائفة حديث «لا عدوى» بأن أبا هريرة رجع عنه ، قالوا : والأخبار الدالة على الإجتناب أكثر فالمصير اليها أولى .

قال صاحب تيسير العزيز الحميد : وهذا ليس بشيء لأن حديث «لا عدوى» قد رواه جماعة كما تقدم وعكست طائفة هذا القول ورجحوا

حديث «لا عدوى» وزيفوا ما سواه من الأخبار وأعلوا بعضها بالشذوذ كحديث فر من المجذوم فرارك من الأسد. وبأن عائشة أنكرت كما روى ابن جرير عنها أن امرأة سألتها عنه فقالت : ما قال ذلك ولكنه قال «لا عدوى» وقال : «فمن أعدى الأول» قالت : وكان لي مولى به هذا الداء فكان يأكل في صحافنا ويشرب في أقداحي وينام على فراشي وهذا أيضا ليس بشيء فإن الأحاديث في الاجتناب ثابتة .

وحملت طائفة أخرى الاثبات والنفي على حالتين مختلفتين فحيث جاء لا عدوى كان للمخاطب بذلك من قوي يقينه، وتوكله بحيث لا يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى كما لا يستطيع دفع التطير الذي يقع في نفس كل واحد ولكن قوى اليقين لا يتاثر به وهذا كما أن قوة الطبيعة تدفع العلة وتبطلها وحيث جاء الأثبات كان المراد به ضعيف الإيمان والتوكل .

أقول وبالله التوفيق : هذه أقوال اصحابها لم يعززوا ما قالوا بأدلة من كتاب ولا سنة ولكنها مجرد آراء ومحاولة للجمع بين الأدلة والجمع بين الأدلة احكم وأسلم لأن فيه عدم تعطيل النصين واعمالهما ـــ لكن يشترط إمكان الجمع وعدم التناقض والتكلف كما هو معروف في بابه فالجمع واجب [1] متى ما أمكن .

وقد قال مالك لما سئل عن حديث «فرمن المجذوم» ما سمعت فيه بكراهية وما أرى ما جاء من ذلك إلا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء، ومعنى هذا أنه نفى العدوى أصلا وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسد الذريعة لئلا يحدث للمخاطب شيء من ذلك فيظن أنه بسبب المخالطة فيثبت العدوى التي نفاها الشارع وإلى هذا ذهب أبو عبيد وابن جرير والطحاوي وذكره القاضي أبو يعلى عن أحمد .

---

(١) نشر البنود شرح مراقي السعود : ٥/٢٦٩ .

وأحسن من هذه الطريقة التي ذكرت آنفا ما ذكره البيهقي وتبعه ابن الصلاح وابن القيم وابن رجب وابن مفلح وغيرهم أن قوله «لا عدوى» على الوجه الذي كانوا يعتقدون في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى وان هذه الأمراض تعدي بطبعها وإلا فقد جعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سببا لحدوث ذلك ، ولهذا قال : «فر من المجذوم فرارك من الأسد» وقال : «لا يورد ممرض على مصح» وقال في الطاعون : «من سمع به بأرض فلا يقدم عليه» وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قال : «فمن أعدى الأول» [1] يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره فكذلك الثاني وما بعده .

وروى الإمام أحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعا «لا يعدي شيء» قالها ثلاثاً فقال اعرابي : يارسول الله النقبة من الجرب تكون بمشعر البعير أو بذنبه في الابل العظيمة فتجرب كلها ، فقال رسول الله ﷺ : «فمن أجرب الأول لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها» .

فأخبر عليه السلام ان كل ذلك بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ [2] .

وأما امره بالفرار من المجذوم ، ونهيه عن إيراد الممرض على المصح وعن الدخول إلى موضع الطاعون فإنه من باب إجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها اسبابا للهلاك والأذى والعبد مأمور باتقاء الشر إذا كان في عافية فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء أو في النار أو تحت الهدم أو نحو ذلك كما جرت العادة بأنه يهلك ويؤذي فكذلك اجتناب مقاربة

---

(١) تيسير العزيز الحميد : ص ٣٧٤ .

(٢) سورة الحديد : الآية ٢٢ .

المريض كالمجذوم وقدوم بلد الطاعون فإن هذه اسباب للمرض والتلف والله سبحانه وتعالى هو خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره .

وأما إذا قوى التوكل على الله والإيمان بقضائه وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتمادا على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ففي هذه الحال يجوز مباشرة ذلك لاسيما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصة وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال : «كل باسم الله ثقة بالله وتوكلا عليه» .

وقد أخذ به الإمام أحمد وروى ذلك ابنه وسلمان رضي الله عنهم، وقوله : «ولا طيرة» . قال ابن القيم : هذا يحتمل أن يكون نفيا وان يكون نهيا أي : لا تطيروا . ولكن قوله في الحديث : «ولا عدوى ولا صفر ولا هامة» يدل على أن [٢] المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها والنفي في هذا أبلغ من النهي لأن النهي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره .

والنفي إنما يدل على المنع منه . وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قال لرسول الله ﷺ : ومنا أناس يتطيرون : فقال : «ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصرفنكم» فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير إنما هو في نفسه ، وعقيدته، لا في المتطير به ، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لا مارآه وسمعه فأوضح ﷺ لأمته الأمر وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل لهم عليها علامة ولا فيها دلالة ولا نصبها شببا لما يخافونه ، ويحذرونه ، ولتطمئن نفوسهم وتسكن إلى وحدانية الله تعالى التي ارسل بها رسله ونزل بها كتبه وخلق لأجلها السموات والأرض .

وعَمَّر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم لئلا يبقي فيها علق منها ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقي واعتصم بحبله المتين وتوكل على الله قطع هاجس الطيرة، من قبل استقرارها .

قال عكرمة : كنا جلوسا عند ابن عباس فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم خير خير فقال ابن عباس : لا خير ولا شر فبادره ابن عباس بالانكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر .

أقول وبالله التوفيق : قد بينت أن هذه الأمور مما كان عليه أهل الجاهلية يتشائمون بهذه الأشياء، والإسلام جاء مانعا لها ومحذرا منها والآيات في الحث على التوكل والاعتماد على الله لا تحصى .

قال تعالى : ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ ، وقال : ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ ، وقال أيضا : ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ إلى غير ذلك من الآيات كما أن الأحاديث ثابتة أيضاً في هذا المعنى ولا يشكل عليه ما رواه ابن حبان في صحيحه مرفوعا : «لا طيرة والطيرة على من تطير» فظاهر هذا المعنى أنها تكون سببا لوقوع الشر بالمتطير .

وجواب ذلك أن المراد به من تطير تطيرا منهيا عنه وهو أن يعتمد على ما يسمعه ويراه حتى يمنعه مما يريده من حاجته فإنه قد يصيبه ما يكرهه عقوبة له، فأما من توكل على الله ووثق به بحيث علق قلبه بالله خوفا ورجاء وقطعه عن الالتفات إلى غير الله وقال وفعل ما أمر به فإنه لا يضره ذلك وأما من اتقى اسباب الضرر بعد انعقادها بالاسباب المنهي عنها فإنه لا ينفعه ذلك غالبا كمن ردته الطيرة عن حاجته خشية أن يصيبه ما تطير به، فإنه كثيرا ما يصاب بما يخشاه .

أقول وبالله التوفيق : على أية حال جاءت نصوص ظن بعض الناس

على أنها تدل على جواز التطير منها قوله ﷺ : «الشؤم في ثلاث في المرأة والفرس والدار» وفي رواية : «لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاثة . الحديث ، وفي حديث آخر : «ان كان ففي الفرس والمرأة والمسكن» رواهما البخاري ، فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك وقالت : (كذب والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم من حدث بها ولكن رسول الله ﷺ كان يقول : «كان أهل الجاهلية يقولون : أن الطيرة في المرأة والدار والدابة . ثم قرأت عائشة ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير﴾) رواه أحمد وابن خزيمة والحاكم .

وقال الخطابي وابن قتيبة : هذا مستثنى من الطيرة . أي : الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميع بالبيع ونحره ولا يقيم على الكراهة والتأذي به فإنه شؤم .

وقالت طائفة أنه ﷺ لم يجزم بالشؤم في هذه الثلاثة: بل علقه بالشرط كما ثبت ذلك في الصحيح ولا يلزم من صدق الشرطية صدق كل واحد بمفرده .

قالوا : والراوي غلط وأنا أقول : والله أعلم والحمد لله إذ ما بدأته كملا ثم الصلاة على النبي وآله وصحبه الفضلاء وأرجو أن أكون قد أتيت بما يعلم الجاهل ويذكر العالم بدون تقصير مخل أو تطويل ممل

والله حسبي ونعم الوكيل .،،

المراجـــع العامـــة

المراجــع العامــة

١ ـــ تفسير الطبري — أبو جعفر محمد بن جرير
٢ ـــ تفسير القرطبي — محمد بن أحمد القرطبي
٣ ـــ تفسير الفخر الرازي — الإمام الفخر الرازي
٤ ـــ تفسير ابن كثير — إسماعيل بن عمر بن كثير
٥ ـــ تفسير الفتح القدير — الإمام الشوكاني
٦ ـــ تفسير البحر المحيط — أبو حيان
٧ ـــ تفسير الكشاف — جار الله أبو محمود
٨ ـــ تفسير المنار — الشيخ محمد عبده
٩ ـــ تفسير الصاوي — محمد الصاوي
١٠ ـــ زاد المسير في علم التفسير — أبو الفرج جمال الدين
١١ ـــ تفسير القرآن الكريم — الإمام النسفي
١٢ ـــ تفسير القرآن — أحمد مصطفى المراغي
١٣ ـــ الفتوحات الالهية — سليمان بن عمر الجمل
١٤ ـــ الدر المنثور في التفسير بالمأثور — عبد الرحمن أبي بكر السيوطي
١٥ ـــ تفسير القرآن الكريم — محمود محمد حمزة
١٦ ـــ تفسير روح المعاني — للشيخ إسماعيل الألوسي
١٧ ـــ محاسن التأويل — محمد جمال الدين
١٨ ـــ فتح البيان في مقاصد القرآن — صديق حسن خان
١٩ ـــ التسهيل لعلوم التنزيل — محمد بن أحمد بن جزي الكلبي
٢٠ ـتفسير القرآن المشتمل على عجائب الأكوان — الشيخ الطنطاوي جوهري
٢١ ـــ في ظلال القرآن — سيد قطب
٢٢ ـــ المحرر الوجيز في تحرير الكتاب العزيز — عبد الحق بن عطية

٢٣ ــ الجواهر الحسان في تفسير القرآن — عبد الرحمن الثعالبي
٢٤ ــ معاني القرآن — يحيى بن زياد الفراء
٢٥ ــ احكام القرآن — محمد بن ادريس الشافعي
٢٦ ــ احكام القرآن — أبو بكر الجصاص
٢٧ ــ مفردات القرآن — الراغب الاصفهاني
٢٨ ــ لباب التأويل في معاني التنزيل — علاء الدين علي بن محمد
٢٩ ــ البرهان في علوم القرآن — محمد بن عبد الله الزركشي
٣٠ ــ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن — محمد الأمين الشنيقيطي
٣١ ــ الجامع المسند الصحيح — محمد بن إسماعيل البخاري
٣٢ ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري — الإمام ابن حجر العسقلاني
٣٣ ــ الجامع الصحيح — مسلم بن الحجاج القشيري
٣٤ ــ مكمل إكمال الأكمال شرح صحيح مسلم — محمد محمد يوسف السنوسي
٣٥ ــ النووي شرح صحيح مسلم — الإمام النووي
٣٦ ــ الموطأ — الإمام مالك
٣٧ ــ المنتقى شرح الموطأ — سليمان بن خلف الباجي
٣٨ ــ سنن النسائي — أحمد بن شعيب بن علي
٣٩ ــ سنن ابن ماجه — عبد الله أحمد يزيد القزويني
٤٠ ــ سنن الدارقطني — علي بن محمد الدارقطني
٤١ ــ جامع الترمذي — أبو عيسى الترمذي
٤٢ ــ تحفة الأحوذي — المباركفوري
٤٣ ــ السنن الكبرى — أبو بكر أحمد بن الحسين
٤٤ ــ السنن — أبو داود
٤٥ ــ المسند — الإمام أحمد بن حنبل
٤٦ ــ الفتح الرباني — أحمد بن عبد الرحمن البنا
٤٧ ــ مجمع الزوائد — الهيثمي

٤٨ ـــ صحيح ابن خزيمة	محمد بن اسحاق بن خزيمة أبو بكر
٤٩ ـــ مسند الطيالسي	علي بن عمر أحمد بن مهدي
٥٠ ـــ المصنف	عبد الرزاق
٥١ ـــ نيل الأوطار	الشوكاني
٥٢ ـــ شرح السنة	البغوي
٥٣ ـــ المستدرك علي الصحيحين	محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم
٥٤ ـــ بلوغ المرام بشرح سبل السلام	الصنعاني
٥٥ ـــ سبل الهدى والرشاد في هد خير العباد	محمد يوسف الصالحي
٥٦ ـــ تلخيص الحبير في تخريج احاديث الرافعي لكبير	ابن حجر العسقلاني
٥٧ ـــ نصب الراية في تخريج احاديث الهداية	الإمام الزيلعي
٥٨ ـــ توضيح الأفكار	الصنعاني
٥٩ ـــ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل	عبد الحق اللكنوي
٦٠ ـــ فيض القدير شرح الجامع الصغير	عبد الرؤف المناوي
٦١ ـــ رياض الصالحين	الإمام النووي
٦٢ ـــ المغني بهامش الشرح الكبير	ابن قدامة
٦٣ ـــ تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق	عثمان بن علي الزيلعي
٦٤ ـــ حاشية ابن عابدين	محمد امين المعروف بابن عابدين
٦٥ ـــ الهداية بهامش فتح القدير	كمال الدين محمد عبد الواحد
٦٦ ـــ كتاب الوقف وبيان احكامه	الشيخ أحمد بن إبراهيم
٦٧ ـــ بدائع الصنائع	علاء الدين أبي بكر
٦٨ ـــ المبسوط	السرخسي
٦٩ ـــ مواهب الجليل شرح مختصر خليل	محمد بن محمد عبد الرحمن المغربي
٧٠ ـــ الخرشي شرح خليل	الخرشي
٧١ ـــ الجواهر المضيئة	محيي الدين أبي محمد عبد القادر
٧٢ ـــ الحطاب شرح مختصر خليل	محمد بن محمد الحطاب

٧٣ ــ البرهان في أصول الفقه	الجويني
٧٤ ــ اعلام الموقعين	ابن قيم الجوزية
٧٥ ــ تذكرة الحفاظ	شمس الدين أبي عبد الله الذهبي
٧٦ ــ شذرات الذهب	عبد الحي بن العماد الحنبلي
٧٧ ــ طبقات الشافعية الكبرى	تاج الدين ابي نصر عبد الوهاب
٧٨ ــ خلاصة تهذيب الكمال	صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي
٧٩ ــ معجم المؤلفين	عمر رضا كحالة
٨٠ ــ الديباج المذهب في أعيان المذهب	ابن فرحون المالكي
٨١ ــ آداب الشافعي ومناقبه	الرازي
٨٢ ــ خزانة الأدب	عبد القادر البغدادي
٨٣ ــ أسد الغابة	عز الدين أبي الحسن الجوزي
٨٤ ــ صفوة الصفوة	عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي
٨٥ ــ تاريخ بغداد	أحمد بن علي الخطيب
٨٦ ــ جوامع السيرة	أبو محمد علي بن حزم
٨٧ ــ الاستيعاب	أبو عمر يوسف بن عبد البر
٨٨ ــ أنساب الأشراف	أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذوري
٨٩ ــ كتاب الطبقات	أبو عمر خليفة الخياط
٩٠ ــ السيرة النبوية	محمد بن اسحاق بن يسار بن خيار
٩١ ــ البداية والنهاية	إسماعيل بن عمر بن كثير
٩٢ ــ تهذيب التهذيب	ابن حجر العسقلاني
٩٣ ــ الاعــلام	خير الدين الزركلي
٩٤ ــ تقريب التهذيب	ابن حجر العسقلاني
٩٥ ــ اخبار القضاة	محمد بن خلف بن حيان
٩٦ ــ النجوم الزاهرة	جمال الدين أبي المحاسن
٩٧ ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان	أبو محمد عبد الله سعيد علي

٩٨ ــ وفياة الأعيان	أحمد بن محمد بن خلكان
٩٩ ــ معرفة القراء الكبار	شمس الدين أبي عبد الله الذهبي
١٠٠ ــ تحفة الاشراف	جمال الدين أبي الحجاج
١٠١ ــ تاريخ الإسلام	الحافظ الذهبي
١٠٢ ــ مفتاح دار السعادة	محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيه
١٠٣ ــ النور المبين في قواعد الدين	ابن جوزي
١٠٤ ــ تقريب الوصول إلى علم الأصول	ابن جوزي
١٠٥ ــ انباء الرواة على انباه النحاة	جمال الدين أبي الحسين
١٠٦ ــ أضواء على الإسلام	محمود أحمد مهدي
١٠٧ ــ العقائد الإسلامية	السيد سابق
١٠٨ ــ عظمة الإسلام	أحمد عطية
١٠٩ ــ سماحة الإسلام	د. العرجون رضي الله عنه
١١٠ ــ كتاب الخراج	أبو يوسف
١١١ ــ مع الله دراسات في الدعوة والدعاة	محمد العزالي
١١٢ ــ علم الاجتماع	عبد الرحمن النحلاوي
١١٣ ــ التفكير فريضة إسلامية	محمود العقاد
١١٤ ــ المستصفى	الإمام الغزالي
١١٥ ــ الباعث الحثيث في علوم الحديث	ابن كثير
١١٦ ــ نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر	ابن حجر
١١٧ ــ جامع بيان العلم وفصله	ابن عبد البر
١١٨ ــ تطور نمو الأطفال	د. إبراهيم حافظ
١١٩ ــ الفكر الإسلامي الحديث	محمد الباهي
١٢٠ ــ مشكلات نمو الأطفال	اسحاق رمزي
١٢١ ــ خلاصة علم النفس	أحمد فؤاد
١٢٢ ــ علم الاجتماع ومدارسه	د. مصطفى خشاب

١٢٣ ــ مقدمة ابن خلدون — ابن خلدون

١٢٤ ــ افكار ورجال — ترجمة محمود محمود

١٢٥ ــ الصراع بين الفكرة الإسلامية والقانونية — الندوي

١٢٦ ــ لسان العرب — ابن منظور

١٢٧ ــ الفلك الحديث — عبد اللطيف أبو الوفاء

١٢٨ ــ الفلك العام — حلمي عبد الرحمن

١٢٩ ــ الصحاح — الجوهري

١٣٠ ــ العدالة الاجتماعية — سيد قطب

١٣١ ــ بين الجاهلية والإسلام — محمد مهدي شمس الدين

١٣٢ ــ المجتمع الإنساني في ظل الإسلام — محمد أبو زهرة

١٣٣ ــ فرق الفرقان بين صفات الخالق وصفات الأكوان :

١٣٤ ــ العقيدة الإسلامية — كمال محمد عيسى

١٣٥ ــ الفوائد — ابن القيم

١٣٦ ــ كتاب الشريعة — الآجري

١٣٧ ــ كتاب النبوات — ابن تيمية

١٣٨ ــ الارشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد — الجويني

١٣٩ ــ عقيدة المسلم — محمد الغزالي

١٤٠ ــ نشر البنود على مراقي السعود — سيدي عبد الله الشنقيطي

١٤١ ــ كتاب الزهد — الإمام أحمد

فهرست الموضوعات

فهرست الموضوعات